

الوجيز في علوم القرآن

الكتاب:	الوجيز في علوم القرآن
نشر:	جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
إعداد:	مركز نون للتأليف والترجمة
الإعداد الإلكتروني:	شبكة المعارف الإسلامية _ www.almaaref.org
الطبعة الأولى:	٢٠١٤م - ١٤٣٥هـ
جميع حقوق الطبع محفوظة ©	

سلسلة المعارف الإسلامية

الوجيز في علوم القرآن

مركز نون للتأليف والترجمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفهرس

٩	المقدمة
١١	الدرس الأول: الوحي الرسالي
١٣	تمهيد
١٣	الوحي في اللغة والاصطلاح
١٤	أقسام الوحي
١٤	أولاً: الوحي الرسالي
٢١	الدرس الثاني: الوحي غير الرسالي
٢٣	تمهيد
٢٣	ثانياً: الوحي غير الرسالي
٢٣	الوحي إلى البشر
٢٥	رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والوحي
٢٧	كيف يعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّ ما نزل عليه هو وحي؟
٣٣	الدرس الثالث: نزول القرآن
٣٥	تمهيد
٣٥	ما نزل من القرآن
٣٦	أول ما نزل من القرآن
٣٦	متى بدأ نزول القرآن؟
٣٧	النزول الدفعي والتدريجي
٣٧	حل هذا التناهي الظاهري
٣٨	هل هناك تلازم بين البعثة ونزول القرآن؟

٤٣	الدرس الرابع: المكي والمدني
٤٥	تمهيد
٤٦	ما هو معيار المكي والمدني؟
٤٦	كيف نُميّز بين المكي والمدني؟
٤٧	من علامات السور المكية
٤٨	ومن علامات السور المدنية
٤٩	مصحف الإمام علي عليه السلام
٤٩	أين مصحف الإمام علي عليه السلام؟
٥٣	الدرس الخامس: جمع القرآن وتأليفه
٥٥	تمهيد
٥٥	كتابة الوحي
٥٦	متى جمع القرآن؟
٥٦	معنى جمع القرآن الكريم
٥٧	روايات جمع القرآن
٥٨	المقصود من روايات الجمع
٦٥	الدرس السادس: رسم القرآن، والقراءات
٦٧	تمهيد
٦٧	التنقيط والشكل
٦٩	القراءات القرآنية
٧٥	نمط اختلاف القراءات
٨١	الدرس السابع: سلامة القرآن من التحريف
٨٣	تمهيد
٨٣	القرآن ونفي التحريف
٨٤	السنة ونفي التحريف
٨٦	تواتر القرآن الكريم
٨٦	شواهد تاريخية أخرى
٨٧	دعوى التحريف
٩٣	الدرس الثامن: الرد على أدلة تحريف القرآن الكريم
٩٥	تمهيد

٩٥	أدلة وقوع التحريف
٩٧	تصريحات كبار علماء الشيعة
٩٨	وفي القرن العشرين
١٠٣	الدرس التاسع: أسباب النزول
١٠٥	تمهيد
١٠٥	القرائن الحالية
١٠٧	الدس في أسباب النزول
١٠٧	إسقاطها عن الاعتبار
١٠٨	المنهج اللازم إتباعه في تقييم أسباب النزول
١٠٩	الاستغناء عن أسباب النزول
١١٠	المورد لا يخصّص الوارد
١١١	التطبيق والجري
١١٢	نماذج مدسوسة في أسباب النزول
١١٧	الدرس العاشر: النسخ في القرآن
١١٩	تمهيد
١١٩	تعريف النسخ
١٢١	حكمة النسخ
١٢١	أين مصلحة الحكم؟
١٢٤	الفرق بين النسخ والتخصيص
١٢٤	وقوع النسخ في القرآن
١٢٥	نسخ التلاوة
١٢٩	الدرس الحادي عشر: الحكم والمتشابه في القرآن
١٣١	تمهيد
١٣١	معنى الحكم
١٣٢	حكمة المتشابه في القرآن
١٣٤	كيف نتعامل مع المتشابه؟
١٣٥	أهل الزيغ والمتشابهات
١٣٧	التأويل في القرآن
١٣٨	الراسخون في العلم

١٣٩	من هم الراسخون؟
١٤٠	نماذج من الآيات المتشابهات
١٤٥	الدّرس الثّاني عشر: الإعجاز القرآني
١٤٧	تمهيد
١٤٧	معنى الإعجاز
١٤٨	الهدف من المعاجز
١٥٠	تنوّع معاجز الأنبياء عليهم السلام
١٥١	مذهب الصرفة
١٥٤	آيات التحدّي
١٥٥	أبعاد الإعجاز القرآني
١٥٧	شروط دلالة الكلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين، وصحبه المنتجبين وبعد.

للقرآن الكريم ما لا يخفى من الدور العظيم في تثبيت الإنسان والمجتمع على صراط النجاة المستقيم. وقد وردت العديد من الآيات القرآنية والروايات المباركة التي أكدت على أهمية دراسة القرآن الكريم والغور في أسرار آياته. فالتحديات العالمية التي تواجهها الأمة اليوم، والغزو الثقافي، كما المادي، الذي يحيط بالأمة من كل اتجاه، يجعل من القرآن الكريم خير قائد ودليل، ومنبعاً للفكر الوضاء الذي يستطيع أن ينقذ روحانية الإنسان، وكيانه ووجوده، ويبقي على ارتباطه المعنوي بالحق عز وعلا، بل إنّ محور بقاء دولة الحق ووجودها يبقى مرتكناً بالفهم الحقيقي لكتاب الله تعالى تمهيداً لتطبيقه في تربية الإنسان وإدارة المجتمع والناس...

ومن هنا يظهر الهدف من هذا الكتاب، الوجيز في علوم القرآن؛ فإنه وبسبب الحاجة المتزايدة إلى فهم القرآن فهماً علمياً واعياً وعميقاً، كانت ضرورة دراسة مجموعة من العلوم الموصلة إلى ذلك. ومن أهمها علوم القرآن.

وتحصيلاً لهذه الغاية تصدّى مركز نون للتأليف والترجمة بتقديم مجموعة من مباحث علوم القرآن بأسلوب مختصر ومبسّط في هذا الكتاب. علماً بأننا أصدرنا كتاباً تخصصياً ومفصلاً في علوم القرآن (دروس في علوم القرآن).

وأما المنهج الذي اتبعناه في هذا الكتاب، فهو يجمع بين الإيجاز، وسلاسة العبارة، والدقة العلمية، والاستدلال والنقد حيث تدعو الحاجة. إضافة إلى وضع الأهداف الخاصة بداية كل درس، والأسئلة والتمارين نهاية كل درس.

على أمل، وبفضل الله تعالى ، أن يكون لهذا الكتاب والجهد أثره العلمي المتميز في ساحتنا التعليمية والثقافية بشكل خاص، والإسلامية بشكل عام.

والحمد لله رب العالمين

مركز نون للتأليف والترجمة

الدرس الأول: الوحي الرسالي

أهداف الدرس:

- ١- أن يتعرّف الطالب إلى معنى الوحي لغة واصطلاحاً.
- ٢- أن يميّز بين أقسام الوحي.
- ٣- أن يعدّد أساليب الوحي الرسالي.

تمهيد

إن من أهمّ الأبحاث المرتبطة بعلوم القرآن الكريم هي مسألة الوحي، حيث إن الأنبياء سلام الله عليهم كانوا سفراء الخالق إلى المخلوقين، وكانوا يتصلون بالله سبحانه وتعالى عبر الوحي وبأساليب مختلفة، ومن هنا كان من الضروري أن نُقدّم بحث الوحي وما يتعلّق به من أمور على سائر أبحاث علوم القرآن، كما أن أهمية القرآن الكريم أنه وحي من الله على النبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم، فالبحث عن العلوم المرتبطة بالقرآن متوقّفة على فهم معنى الوحي وكيف كان القرآن وحياً، وكيف اتصل النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بالله سبحانه، من هنا نبدأ بتعريف الوحي، ثمّ نتعرّف في هذا الدرس إلى أقسامه وأساليبه إن شاء الله تعالى.

الوحي في اللغة والاصطلاح

الذي يُستفاد من تتبّع الاستعمالات القرآنية وأقوال أهل اللّغة أن للوحي معنى واحداً وهو الخطاب الخفيّ.

ولكن الخفاء يكون على أنحاء متعدّدة، فتارة يكون خفياً في نفسه، يُسرّه المتكلّم إلى المخاطب، وأخرى يكون خفاؤه من جهة كونه يُعبّر عنه بالإشارات والإيماءات التي تخفى على غير المقصود بالخطاب، أو يخفى مدلولها عنه.

ونفس هذا المعنى للوحي ورد استعماله في القرآن الكريم:

فقد قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ...﴾^١.

وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾^٢.

أقسام الوحي

بعد تتبع استعمالات القرآن الكريم لكلمة الوحي والتي كانت بمعنى الخطاب الخفي، نجد أنها تنقسم إلى قسمين رئيسيين مهمين لا ثالث لهما:

الوحي الرّسالي، والوحي غير الرّسالي وسوف نتحدّث في هذا الدرس عن الوحي الرّسالي وأساليبه، تاركين البحث عن الوحي غير الرّسالي للدرس القادم إن شاء الله تعالى.

أولاً: الوحي الرّسالي:

١- المعنى

وهو وسيلة الاتصال بين الباري عزّ وجلّ وبين سفرائه إلى خلقه.

وعن طريق الوحي الرّسالي يتمّ تلقّي المعارف والأحكام وغير ذلك من شؤون الرسالة. وهذا القسم هو الأكثر استخداماً في القرآن الكريم، وفي الروايات الشريفة، ولذلك أصبح المعنى المتبادر والمنصرف للذهن عند سماع كلمة الوحي، ومن هنا إذا وردت كلمة الوحي وشككنا من أيّ معنى وأيّ قسم هي، هل من الوحي الرّسالي أم غيره؟ كان المنصرف إلى الذهن هو الوحي الرّسالي.

^١ سورة النساء، الآية: ١٦٣.

^٢ سورة النحل، الآية: ٦٨.

٢- أغراض الوحي الرسالي

وهذا الوحي الرسالي النازل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يأتي لأغراض عدّة ومضامين شتى، نذكر منها لا على سبيل الحصر:

أ- لبيان الذكر الحكيم والقرآن الكريم؛ الذي هو نصّ كلام الله سبحانه وتعالى المنزل على رسوله، وهو المتصف بالإعجاز، والوحي النازل به قد يختص باسم الوحي القرآني.

ب- لتأويل وتفسير كلام الله تعالى الوارد في القرآن الكريم.

ج- لبيان الأحاديث القدسية التي لا تدخل في الوحي القرآني.

د- لذكر تفاصيل الشريعة وأحكامها ومعارفها وما يتعلّق بها.

هـ- لبيان ما يرتبط بشؤون الإمامة والتدبير وشؤون الحكم ممّا يحتاجه الرسول في مهمته القيادية.

و- لذكر ما يرتبط بأخبار العالم والمعيّيات والحوادث السابقة واللاحقة، وهذا أيضاً يدخل في دائرة علوم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم التي قد تفتضيها رسالته وقيادته الإصلاحية على مستوى عمر الدنيا.

٣- أساليب الوحي الرسالي

والوحي الرسالي بشكل عام له أساليب متعدّدة ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة المنقولة لنا عن طريق الرواة الثقات، أو الواصلة إلينا عبر أئمة الهدى من أهل بيت النبوة، ومن هذه الأساليب ما يلي:

أ- التكليم المباشر دون توسط الملاك

هذا الأسلوب من الوحي يتمّ حال اليقظة: كما حصل للنبي آدم عليه السلام: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّمَا أَلَمْ أَنُكَلِّمَاهُمَا تَلْكُمَا الشَّجَرَةَ﴾^١.

^١ سورة الأعراف، الآية: ٢٢.

وما جرى مع النبي إبراهيم عليه السلام: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا..﴾^١.

وفي قصة نبي الله موسى عليه السلام: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا...﴾^٢.

ب- الإيحاء بواسطة ملك

وهذا الأسلوب له شواهد عديدة جداً، ولعله الأسلوب الأكثر شيوعاً والأغلب وقوعاً.

قال تعالى في قصة نبي الله زكريا عليه السلام: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾^٣.

وقال سبحانه في الحديث عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^٤.

ج- الرؤيا في المنام

فإن "رؤيا الأنبياء وحي"^٥ كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام، وورد عن عبيد بن عمير مقطوعاً.

ولهذا الأسلوب من الوحي في القرآن الكريم شواهد عدّة نذكر واحداً منها:

قوله تعالى في قصة النبي إبراهيم عليه السلام:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾

^١ سورة الصافات، الآيات: ١٠٤ و ١٠٥.

^٢ سورة النساء، الآية: ١٦٤.

^٣ سورة آل عمران، الآية: ٣٩.

^٤ سورة البقرة، الآية: ٩٧.

^٥ راجع لسان العرب لابن منظور الأفرقي مادة وحي، وغيره من كتب اللّغة.

^٦ المصدر السابق.

قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١﴾.

فقول النبي إسماعيل عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾^١ يكشف عن أن رؤيا والده تلك كانت وحياً وأمرأ إلهياً بُلغ إياه عن طريق الرؤيا، وما كان النبي إبراهيم عليه السلام ليقدم على ذبح ولده لمجرد رؤيا لو لم تكن تلك الرؤيا وحياً وأمرأ إلهياً لازماً بالنسبة إليه.

د- الإلهام

وقد يُعبّر عنه بالإلقاء في الروع، وهو لا يغاير بقية أنحاء الوحي من حيث النتيجة ومن حيث اليقين والاطمئنان بمصدر الإلهام، وإن غايرها من حيث الأسلوب والشكل.

وقد صرّحت النصوص بأن الإلقاء في الروع كان أحد أساليب الوحي الرّسالي، منها ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "ألا إنّ الروح الأمين نفث في روعي: إنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب..."^٣.

لقد جُمعت أساليب الوحي في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأُذُنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^٤.

النتيجة إذن يمكن إدخال الإلهام والنفث في الروع في القسم الثاني الذي هو الإيحاء بواسطة ملك. فإن إيحاء الملك يكون على أنحاء:

- فتارة يكون بسماع الصّوت ومشاهدة الصّورة.
- وأخرى بسماعه من دون مشاهدة.
- وثالثة بالإلقاء في الروع دون توشّط صوت.

^١ سورة الصافات، الآيات: ١٠٥-١٠٢.

^٢ سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

^٣ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ١١، ص ٦٤.

^٤ سورة الشورى، الآية: ٥١.

فالوحي هو الإلهام ومن وراء حجاب هو التكليم المباشر، وإنما سُمّاه من وراء حجاب لأنه بواسطة صوت دون رؤية المصدر، وإرسال الرسول هو الإيحاء من خلال الملاك.

وربما كان تخصيص النحو الأول باسم الوحي هنا لأنه أشد خفاءً من الثاني فهو بالنسبة إليه مختص باسم الوحي.

فملاحظة الخفاء أمر نسبيّ قد يلاحظ بالنسبة لغير النبيّ، وقد يلاحظ بالنسبة لبعض حواس النبيّ دون بعض.

أسئلة حول الدرس

أجب عن الأسئلة التالية؟

- ١- عرّف معنى الوحي في اللغة والاصطلاح؟
- ٢- عدّد أقسام الوحي مع توضيح كل قسم بشكل مختصر؟
- ٣- ما هو الوحي الرسالي؟
- ٤- حدّد أهم الأغراض التي من أجلها نزل الوحي؟
- ٥- تحدّث عن أهم أساليب الوحي الرسالي باختصار؟

حدّد أسلوب الوحي المستخدم في الآيات القرآنية التالية:

- ١- ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾^١
- ٢- ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا..﴾^٢
- ٣- ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾^٣
- ٤- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُيَّيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا آبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^٤
- ٥- ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾^٥

أجب ب ✓ أو ✗:

كل وحي نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو قرآن
ذكر الوحي في القرآن الكريم بمعانٍ عديدة كالتكليم والإلهام
لا يختصّ الوحي الإلهي بالأمر الرسالية
استعملت كلمة الوحي في القرآن بمعنى الخطاب الخفي
الوحي الرسالي هو لأجل تلقي المعارف والأحكام وشؤون الناس

^١ سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

^٢ سورة الصافات، الآية: ١٠٤.

^٣ سورة البقرة، الآية: ٩٧.

^٤ سورة الصافات، الآيات: ١٠٢ - ١٠٥.

^٥ سورة مريم، الآية: ٥٢.

الدرس الثاني : الوحي غير الرّسالي

أهداف الدرس:

- ١- أن يتعرّف الطالب إلى موارد الوحي غير الرّسالي.
- ٢- أن يتعرّف إلى أساليب الوحي مع النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.
- ٣- أن يجيب على شبهة خوف النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عند نزول الوحي عليه.

تمهيد

تقدّم في الدرس السابق أن الوحي الذي هو الخطاب الخفي لغة واستعمالاً ينقسم إلى قسمين رئيسين، رسالي وغير رسالي، وقد انتهى الحديث عن الوحي الرسالي في الدرس السابق، وفي هذا الدرس سوف نتعرض للوحي غير الرسالي، وهذا يساعد على فهم بحث الوحي بشكل أفضل، ويساعدنا على التمييز بين أقسام الوحي بشكل أدق.

ثانياً: الوحي غير الرسالي:

لا تختصّ الأساليب الثلاثة (التكليم المباشر، ومن خلال ملك، ومن خلال الرؤيا في المنام) من الوحي، والتي تقدّم ذكرها في الوحي الرسالي، بالأنبياء عليهم السلام، ولا تختصّ أيضاً بوحي النبوة، بل هي تجري مع غير الأنبياء أيضاً، وفي الأغراض الأخرى غير الرسالية، كما هو الحال بالنسبة لعددٍ من الصالحين:

الوحي إلى البشر

١- فمع أم موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ﴾^١.

^١ سورة القصص، الآية: ٧.

ومع مريم بنت عمران عليهما السلام: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾^١.

ومن الواضح أنّ هذه الأغراض لم تكن رسالية، ولم يلزم من نزول الملائكة فيها نبوة المخاطب والمنزل عليهم.

٢- الوحي بالأوامر التكوينية: وقد عبّر القرآن الكريم في بعض الموارد عن الأوامر التكوينية بالوحي أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾^٢ وفي قوله أيضاً: ﴿بِیَوْمِنَا نَحْدِثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾^٣.

٣- الوحي بالأوامر التدييرية: كما أنّ إبلاغ الأوامر التدييرية إلى الملائكة وحيّاً أيضاً في نصّ القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾^٤.

٤- الوحي بإيداع الأمور الفطرية: وورد أيضاً التعبير به عن إيداع الأمور الفطرية والغريزية لدى الحيوانات وإلهامها ما ينبغي لها، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾^٥.

والنتيجة التي نتوصل إليها من مجموع هذه الآيات: أنّ الوحي لا يلزم النبوة ولا يختصّ بالأمور الرسالية وما يعبر عنه بوحي الرسالة، بل يتعدّى إلى كثير من الأغراض والموارد الأخرى.

^١ سورة آل عمران، الآية ٤٢.

^٢ سورة فصلت، الآية: ١٢.

^٣ سورة الزلزلة، الآيتان: ٤-٥.

^٤ سورة الأنفال، الآية: ١٢.

^٥ سورة النحل، الآية: ٦٨.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والوحي

الذي يتحصّل من مجموع النصوص الواردة في كيفية نزول الوحي عليه، أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يوحى إليه بكل أساليب الوحي المتقدّمة ولمختلف الأغراض.

١- الرؤيا في المنام:

ففي بعض النصوص أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يوحى إليه عن طريق الرؤيا في المنام خاصة في الفترة الأولى من نبوته قبل نزول جبرئيل عليه السلام؛ فعن محمد بن علي بن النعمان الأحول قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الرسول والنبيّ والمحدّث، قال عليه السلام: "الرسول الذي يأتيه جبرئيل قُبلاً فيراه ويكلّمه، فهذا الرسول، وأما النبيّ فهو الذي يرى في منامه نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام ونحو ما كان رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أسباب النبوة قبل الوحي حتى أتاه جبرئيل عليه السلام من عند الله بالرسالة، وكان محمد صلى الله عليه وآله وسلم حين جمع له النبوة وجاءته الرسالة من عند الله يجيئه بها جبرئيل ويكلّمه بها قبلاً، ومن الأنبياء من جمع له النبوة ويرى في منامه ويأتيه الروح ويكلّمه ويحدّثه، من غير أن يكون يرى في اليقظة. وأما المحدّث فهو الذي يحدّث فيسمع، ولا يعاين ولا يرى في منامه".^١

والرؤيا لم تنقطع عنه صلى الله عليه وآله وسلم بعد نزول جبرئيل عليه السلام بالوحي على قلبه، وبعد أن نزل عليه الوحي المباشر كما سيأتي، فإن القرآن الكريم يشير إلى حصول ذلك فيما بعد أيضاً.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾^٢. وقال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ...﴾^٣.

^١ الشيخ الكليني، الكافي، ج ١، ص ١٧٦.

^٢ البخاري، الجامع الصحيح، الباب الخامس من أبواب الوضوء، ج ١، ص ٤٤.

^٣ سورة الفتح، الآية: ٢٧.

^٤ سورة الأنفال، الآية: ٤٣.

٢- الإيجاء بواسطة الملك:

وأما المرحلة الثانية فكانت مرحلة نزول الوحي بواسطة الروح الأمين جبرئيل عليه السلام على قلب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾^١.

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾^٢.

وقد وردت بعض الروايات بأن جبرئيل عليه السلام كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصورة إنسان جميل الطلعة، فيحدثه ويقرأ عليه القرآن الكريم، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأنس به، وقد رآه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على صورته الحقيقية الملائكية مرتين تحدثت عنهما سورة النجم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾^٣.

فالمرّة الأولى رآه صلى الله عليه وآله وسلم في بدء الوحي: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾^٤ فسد ما بين المشرق والمغرب.

﴿وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾^٥ فيما روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم سأل جبرئيل عليه السلام أن يريه نفسه مرة أخرى على صورته التي خلقه الله عليها، فأراه صورته فسد الأفق أيضاً^٥.

^١ سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣ - ١٩٤.

^٢ سورة البقرة، الآية: ٩٧.

^٣ سورة النجم، الآيات: ٤ - ١٤.

^٤ سورة النجم، الآية: ٧.

^٥ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦٠. الشيخ الصدوق، كمال الدين، ص ٨٥.

٣- التكليم المباشر:

روي أن الإمام الصادق عليه السلام سئل عن الغشبية التي كانت تأخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فكانت عند هبوط جبرئيل؟

فقال: "لا، إن جبرئيل كان إذا أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يدخل عليه حتى يستأذنه وإذا دخل عليه قعد بين يديه فعدة العبد، وإنما ذاك عند مخاطبة الله عزّ وجلّ إياه بغير ترجمان وواسطة".^١

كيف يعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّ ما نزل عليه هو وحي؟
الثابت أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان منذ اللحظة الأولى على بيّنة من أمره، والله سبحانه لا يختار لرسالته وثقلها إلاّ من صنع على عينه وهيء لحملها؟!!

وقد كانت الكرامات الكثيرة التي ظهرت له ورويت عنه تشكل إرهابات للنبوة، بحيث أنه لما نزل عليه الروح الأمين كان على بينة من أمره، وعلى بصيرة ثابتة ويقين مما جاءه، وإلى هذا تشير عدة روايات وردت عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

فعن زرارة أنه سأل الإمام الصادق عليه السلام: "كيف لم يخف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يأتيه من قبل الله أن يكون مما ينزغ به الشيطان؟ فقال: إن الله إذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار فكان الذي يأتيه من قبل الله مثل الذي يراه بعينه".^٢

ويحسن الإشارة هنا إلى أنّ بعض مما يروى في كميّة نزول الوحي عليه صلى الله عليه وآله وسلم ومن حالة الملح التي أصيب بها، ومن لجوئه إلى خديجة التي هدّأت من روعه، واكتشفت هي نبوته قبل أن يعرف ذلك هو، أو عرضت أمره على ورقة بن نوفل أو غيره من

^١ الشيخ هادي معرفة، التمهيد في علوم القرآن، ج ١، ص ٧٦.

^٢ م.ن.

الأخبار أو الرهبان فأخبروها بأنه نبي، كل ذلك مما لا يمكن القبول به، ولا يتصور النبي صلى الله عليه وآله وسلم شاكاً في نبوته، ولا جاهلاً بالوضع الذي هو عليه، حتى يحتاج إلى من يطمئنه من أمثال هؤلاء، هذا بالإضافة إلى تهافت تلك النصوص وتضاربها، وضعف أسانيدها وإن رويت في كتب أطلق عليها اسم الصحاح.

ومثل هذا الكلام يجري في أسطورة "الغرائيق" وأمثالها مما لا نشك ببطلانه واستحالته، ونعتقد أنه مما دسّ في الأخبار لغرض التشكيك والظعن والتشويه، شأنه شأن الكثير من الإسرائيليات^١.

^١ راجع: جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، ج ٢، ص ٢٨٧.

أسئلة حول الدرس

أجب عن الأسئلة التالية؟

١- عرّف الوحي غير الرسالي؟

٢- ماذا نعني بالوحي بالأوامر التكوينية؟

٣- ماذا نعني بالوحي بإيداع الأمور الفطرية؟

٤- ما هي الأساليب التي كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوحى إليه بها؟

٥- كيف كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعلم أن ما نزل عليه هو وحي؟

اذكر آياً من هذه الآيات هو وحي رسالي وأبها غير رسالي:

- ١- ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾^١
- ٢- ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا...﴾^٢
- ٣- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي﴾^٣
- ٤- ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^٤
- ٥- ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾^٥
- ٦- ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾^٦
- ٧- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾^٧
- ٨- ﴿وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ... وَامْرَأَتُهُ قَانِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ...
الَّتِ يَا وَيْلَتَىٰ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ...﴾^٨
- ٩- ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾^٩
- ١٠- ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾^{١٠}

^١ سورة يونس، الآية: ٢٠.

^٢ سورة فصلت، الآية: ١٢.

^٣ سورة المائدة، الآية: ١١١.

^٤ سورة مريم، الآية: ١١.

^٥ سورة مريم، الآية: ١٧.

^٦ سورة الأنعام، الآية: ١٢١.

^٧ سورة القصص، الآية: ٧.

^٨ سورة هود، الآيات: ٦٩-٧٣.

^٩ سورة طه، الآية: ١٣.

^{١٠} سورة آل عمران، الآية: ٤٥.

اذكر أسلوب الوحي الذي استخدم مع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآيات القرآنية:

١- ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾^١

٢- ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ...﴾^٢

٣- ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾^٣

٤- ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾^٤

^١ سورة الفتح، الآية: ٢٧.

^٢ سورة الأنفال، الآية: ٤٣.

^٣ سورة البقرة، الآية: ٩٧.

^٤ سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣ - ١٩٤.

الدرس الثالث: نزول القرآن

أهداف الدرس:

- ١- أن يتعرّف الطالب إلى ما نزل من القرآن.
- ٢- أن يميّز بين النُّزول الدَّفعي والتَّدرِجي.
- ٣- أن يميّز بين البعثة ونزول القرآن.

تمهيد

بعد أن عرفنا معنى الوحي وأقسامه وأساليبه، كان من الضروري جداً التركيز على خصوص الوحي القرآني الذي نزل على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، هل نزل بمعناه أم بلفظه، وأول ما نزل، ومتى كان النزول، وكيفية نزول القرآن دفعة واحدة وفي نفس الوقت نزل بمناسبات متعدّدة وعلى مدار سنوات تبليغ الرسالة، وفي هذا الدرس إجابة عن كثير من الشبهات العالقة والحساسة.

ما نزل من القرآن

إنّ الرأي الصحيح والذي عليه عامة أهل التحقيق هو أن القرآن الكريم نزل من عند الله بألفاظه نفسها التي قرأها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على الناس^١، وهذا يجعل لتلك الألفاظ قدسية، يتعبّد بتلاوتها، ولا يجوز تبديلها بغيرها، ولا التصرّف بها، حتى بالمرادفات.. وبذلك يفرّق بين القرآن الكريم والحديث القدسي الذي نزل معناه دون لفظه، وعبر عنه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بلسانه وألفاظه وأسلوبه وصياغته، ولأجل ذلك كان اللفظ القرآني يتّصف بالإعجاز البلاغي، ولو كان من صياغة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما اختلف عن الحديث القدسي صياغة، ومن وجهة نظر بلاغية على الأقل، ولما اختلف

^١ وهناك قولان آخران غير مشهورين هما:

أ. أنه نزل القرآن بالمعاني خاصة على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فعبر عنه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بلغة العرب.

ب. أن المعاني ألقيت على جبرئيل، فألقاها إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بلغة العرب بتعبيره، وأن أهل السماء يقرؤونه بالعربية. راجع: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ٢٩١.

عن مطلق الحديث الذي تحدّث به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، مع أن كلاً منهما له من الخصائص والأسلوب ما يميّزه عن الآخر.

ويشهد على كون القرآن نازلاً بلفظه من عند الله تعالى، توجيه الخطاب في كثير من آياته إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعبارة ﴿قُلْ﴾، حيث تكررت في أكثر من ثلاثمائة مورد، ممّا يدلّ على عدم تدخّل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صياغة الوحي، فهو مخاطب به لا متكلم، حاكٍ لما يسمعه لا معبّر.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾^١.

أول ما نزل من القرآن

ورد في الكثير من النصوص المروية عن أهل البيت عليهم السلام وغيرهم أن أول ما نزل من القرآن الكريم هو قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^٢، وهذا هو الرأي المشهور بين علماء المسلمين^٣.

متى بدأ نزول القرآن؟

لا خلاف في أن بدء نزول القرآن الكريم كان في شهر رمضان المبارك، والآيات الكريمة التي صرّحت بنزول القرآن فيه متعدّدة:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^٤.

^١ سورة القيامة، الآيتان: ١٧ - ١٨.

^٢ سورة العلق، الآيات: ١ - ٥.

^٣ وقيل: إن أول ما نزل من القرآن الفاتحة اعتماداً على أنه صلى الله عليه وآله وسلم بعد نزول الوحي عليه صلى في اليوم التالي هو وخديجة وعلي، والصلاة إنما تكون بفاتحة الكتاب، فلا بد أن تكون الفاتحة هي أول ما نزل من القرآن الكريم. والجواب: بإمكان نزول الفاتحة بعد آيات سورة العلق الخمسة، وإمكان أن تكون صلواتهم آنذاك بلا فاتحة الكتاب، وقبل أن تشرّع الصلاة بها.

^٤ سورة القدر، الآية: ١.

وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾^١.

وقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^٢.

وقد ذهب بعض إلى تحديده في السابع عشر منه، وقال آخرون في الثامن عشر، وقال قوم في الرابع والعشرين، وكلها أقوال لا حجة واضحة عليها. والصحيح كما هو صريح الآيات السابقة الذكر أن نزول القرآن بدء في شهر رمضان في ليلة القدر.

النزول الدفعي والتدرجي

قد يظهر من الآيات المتقدمة التي تتحدث عن نزول القرآن في شهر رمضان أن نزول القرآن الكريم كان دفعي، بمعنى أنه نزل بتمامه ودفعة واحدة في شهر رمضان. وهذا يخالف ما هو ثابت بالتواتر من أن القرآن نزل مجزئاً متفرقة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الفترة ما بين بعثته ووفاته، وهو أمرٌ يصرح به القرآن الكريم نفسه في آيات أخرى حيث يقول تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾^٣.

ويقول أيضاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾^٤.

حل هذا التنافي الظاهري

إن القرآن بدأ نزوله في شهر رمضان المبارك، ثم توالى النزول بعد ذلك في فترات مختلفة، فإنه يصح أن يقال نزل الغيث في الوقت الفلاني مع أنه ينزل

^١ سورة الدخان، الآية: ٣.

^٢ سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

^٣ سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

^٤ سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

تدرجياً، لأن بدء نزوله كان في ذلك الوقت. ومن جهة أخرى فإن القرآن اسم جنسٍ يُطلق على الكلِّ وعلى البعض، وكلُّ آيةٍ منه فهي قرآن، فلا نحتاج إلى التجوُّز في إطلاق القرآن على الآيات الأولى النازلة في ليلة القدر. وقد تُوْرخ الحوادث الواقعة في فترةٍ ممتدَّة بأول حدوثها وتاريخ شروعيها، كالمعارك الطويلة الأمد فيقال إنَّ الحربَ الفلانيَّة وقعت في اليوم الفلاني مع أنَّها تستمر بعد ذلك عدَّة سنوات^١.

هل هناك تلازم بين البعثة ونزول القرآن؟

روي عن أهل البيت عليهم السلام أن بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت في السابع والعشرين من رجب، وقد نقل العلامة المجلسي اتفاق الإمامية عليه^٢، وروي عن غيرهم أيضاً^٣.

وعليه لا تلازم بين البعثة ونزول القرآن، فالقرآن نزل عليه في شهر رمضان، وفيما بينهما كان نبياً دون أن يكون معه قرآن. ويؤيده ما ورد في بعض النصوص من أن نزول القرآن الكريم كان في السنة الثالثة من البعثة الشريفة، وأن فترة النزول استمرَّت مدة عشرين سنة، عشر منها في مكَّة وعشر في المدينة^٤.

وسواء ثبت نزول القرآن في السنة الأولى للبعثة أم ثبت كون بدء نزوله في السنة الثالثة، فإن النتيجة عدم التلازم بين تاريخ البعثة ونزول الوحي عليه وبين تاريخ نزول القرآن.

^١ وقيل في حل التناهي إن القرآن الكريم له نزولان: أحدهما دفعي (لمعاني القرآن الكلية أو لألفاظه إلى البيت المعمور أو إلى السماء الدنيا أو إلى قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكل واحد من هذه الاحتمالات عبارة عن قول ذهب إليه عدد من العلماء). والثاني تدريجي، كان ينزل نجومياً بمعنى بين الفترة والفترة وبحسب المناسبات والظروف. وهذا الكلام يتوقَّف على الدليل النقلی، وما ذكر من أدلة غير تامة سنداً ولا دلالة، لذلك لا يمكن الاعتماد عليها، لذا فلا يعدل عن الثابت من النزول التدريجي بالنص والتواتر إلا بدليل ثابت.

^٢ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٩٠.

^٣ راجع: السيد جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، ج ٢، ص ٢٤٤.

^٤ راجع: الشيخ الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٦٢٩. وتفسير العياشي، ج ١، ص ٨٠. ومستدرک الحاكم ج ٢، ص ٦١٠. والاتقان للسيوطي، ج ١، ص ١٤٦، وغيرها.

أسئلة حول الدرس

أجب عن الأسئلة التالية:

- ١- هل نزل القرآن الكريم بمعناه أم بلفظه؟
- ٢- حدّد أول ما نزل من القرآن الكريم وبرهن على ذلك؟
- ٣- متى كان نزول القرآن وكيف كان نزوله؟
- ٤- هل كان نزول القرآن على نحو دفعي أو تدريجي؟
- ٥- هل هناك تلازم بين البعثة ونزول القرآن؟

أجب بـ ✓ أو ✗:

- ١- أول ما نزل من القرآن الكريم سورة العلق
- ٢- ما نزل من القرآن الكريم لفظه ومعناه من عند الله سبحانه
- ٣- ما نزل من القرآن الكريم معناه على قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم
- ٤- النزول الدفعي يعني نزول القرآن دفعة واحدة كان في شهر رمضان
- ٥- النزول التدريجي يعني تدرّج بالأحكام من الأسهل للأصعب
- ٦- كلمة ﴿قُل﴾ في عدد من السور يشهد على عدم تدخّل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بألفاظ القرآن الكريم
- ٧- كانت بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في السابع والعشرين من شهر رجب
- ٨- نزول القرآن كان في السنة الثالثة من البعثة
- ٩- الحديث القدسي نزل بمعناه على قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو صاغه بعباراته الخاصة
- ١٠- نزل القرآن الكريم في المعاني نفسها التي قرأها النبي صلى الله عليه وآله وسلم

على أي معنى تدل هذه الآيات، النزول الدفعي أم التدريجي؟

- ١- ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾^١
- ٢- ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^٢
- ٣- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^٣
- ٤- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾^٤
- ٥- ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^٥

^١ سورة القيامة، الآيات: ١٦-١٨.

^٢ سورة العلق، الآيات: ١-٥.

^٣ سورة القدر، الآية: ١.

^٤ سورة الدخان، الآية: ٣.

^٥ سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

الدرس الرابع: المكي والمدني

أهداف الدرس:

- ١- أن يميّز الطالب بين معياري المكي والمدني.
- ٢- أن يتعرّف إلى الخلاف في تحديد المكي والمدني.
- ٣- أن يعدّد بعض السّمات البارزة للمكي والمدني.

تمهيد

رافق نزول القرآن حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الرّسالية، ونزلت آياته وسوره لتلبيّ احتياجات المرحلة التي كانت تعيشها الرسالة، وتناسب مع الظروف والتطوّرات التي رافقت الدعوة الإسلامية آنذاك، وقد شكّلت هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة المنورة نقطة تحوّل رئيسة قسّمت الحياة الرّسالية للرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى مرحلتين متميزتين:

١- المرحلة المكية: وهي مرحلة الدعوة التي لم تتجاوز الأفراد.

٢- المرحلة المدنية: وهي مرحلة الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي.

وقد تبع ذلك تعيّر في طبيعة السور القرآنية النازلة بعد الهجرة.

وقد عني الباحثون بدراسة المكي والمدني من السور، نظراً لما يترتّب على ذلك من فوائد وثمرات يُستفاد منها في التفسير وفي استنباط الأحكام الشرعية. وسيأتي في بحث الناسخ والمنسوخ، أنه لمعرفة الناسخ من المنسوخ لا بدّ غالباً من معرفة زمان النزول، وضرورة كون الناسخ متأخراً نزولاً عن المنسوخ، وقد يُستفاد من معرفة المكي والمدني في محاكمة أسباب النزول التي قد يُتلاعب بها لمصالح سياسية معينة.

ما هو معيار المكي والمدني؟

هناك معياران في تحديد معنى المكي والمدني لكل واحدٍ منهما قائلًا:

١- زمني، وهو المعيار الأصح والأدق وهو الأشهر استعمالاً، وهو النافع في معرفة الناسخ من المنسوخ.

فالمكيّ: عبارة عن كل ما نزل في المرحلة المكية، أي قبل الهجرة إلى المدينة المنورة.

والمدني: عبارة عن كل ما نزل في المرحلة المدنية أي مرحلة الدولة الإسلامية، فيطلق على النازل بعد الهجرة ويدخل فيه كل ما نزل بمكة عام الفتح أو في حجة الوداع، أو في غير مكة والمدينة كالطائف وحنين و...، أثناء الغزوات التي خاضها الرسول صلى الله عليه وآله وسلمو ثبت نزول شيء من القرآن أثناءها.

٢- مكاني، وهذا الاصطلاح معمولٌ به عند بعض.

المكي: يطلق على النازل من القرآن الكريم في مكة المكرمة مطلقاً، سواء كان قبل الهجرة أو بعدها، أي في المرحلة المكية وما نزل في مكة بعد الفتح.

المدني: كل ما لم ينزل في مكة فهو مدني.

وعليه فيكون ما نزل في مكة عند الفتح وفي حجة الوداع مكيّاً، رغم كونه بعد الهجرة، بل في أواخر حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

ولعل الاختلاف الذي نلاحظه أحياناً في مكية السورة أو مدنيته يرجع إلى الاختلاف في المعيار، ويتبعه اختلاف في الاصطلاح.

كيف تميّز بين المكي والمدني؟

هناك أمور اعتُبرت علامات تشير إلى زمن نزول الآية، وهل أمّا مكية أم مدنية، لكن المشهور بين العلماء أن هذه العلامات ليست قطعية، ولا يعوّل عليها دائماً، فهي ليست سوى مرجّحات تساعد على تحديد المكي من المدني، ومن هذه العلامات:

من علامات السور المكية:

١- كل ما نزل فيه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

بناءً على أن طبيعة المرحلة المكية هي الخطاب العام لكل الناس، لا للمؤمنين.

إلا أن هذا العنصر أو هذه السمة لا تصلح أن تكون ضابطة تميز بين المكي والمدني، نظراً لورود آياتٍ ثبت أنها مدنية، وهي تخاطب الناس بالخطاب العام مثل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^١.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ...﴾^٢.

٢- ما نزل من القرآن فيه ذكر الأمم.

وهذه الضابطة أيضاً غير دقيقة، لوجود ذكر الأمم في سور مدنية قطعاً، ويكفي مثلاً على ذلك سورة البقرة التي تحدت عن قصة موسى وبنو إسرائيل مفصلاً ومن الثابت أنها مدنية.

٣- السور التي تبدأ بالحروف المقطعة من علامات السور المكية، عدا سورتي البقرة وآل عمران، وفي سورة الرعد خلاف.

٤- كل سورة فيها سجدة فهي مكية (طبعاً المراد الأعم من السجدة المستحبة والواجبة).

٥- كل سورة فيها لفظ (كلاً) فهي مكية.

^١ سورة البقرة، الآية ٢١.

^٢ سورة البقرة، الآية ١٦٨.

ومن علامات السور المدنية:

١- ما فيه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فقد تكون المجتمع الإيماني الذي بدأت تحاطبه الآيات بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في المدينة بعد الهجرة. لذلك ربما لا نجد فيما نصّ على أنه مكّي خطاباً بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

٢- ما كان من الفرائض والسنن وتفصيل السنن والحدود والأحكام. فإنما نزل بالمجتمع المدني حيث الدولة الإسلامية وسن الشرائع والقوانين.

٣- كل سورة فيها ذكر للمنافقين فهي مدنية سوى سورة العنكبوت، وقيل: إنّ أولها إلى آخر الآية مدني أيضاً وما عداها فهو مكّي، وفي هذه الآيات ذكر الجهاد والمنافقين.

٤- كل سورة فيها إذن بالجهاد أو ذكر له وبيان أحكامه فهي مدنية، أو خصوص الآيات المتضمنة لذلك.

٥- كل سورة فيها محاجة لأهل الكتاب فهي مدنية.

والحق: أن هذه العلامات المميزة مبنية على ملاحظة السور والآيات واستقراءها، وهي جميعها في موارد ثبت بالنقل مكية السورة أو مدنيته. وعليه فلا يكون هناك ثمرة كبيرة في دراسة هذه المميزات.

وقد بالغ المفسرون أحياناً في تشخيص المكّي والمدني، فعّدوا بعض الآيات الواردة في السور المكية مدنيّاً، وبالعكس، اعتماداً على وجوه واعتبارات استحسانية لا يصح الاعتماد عليها.

عدد ما نزل في مكة وما نزل بالمدينة من السور:

عدّد الزركشي خمساً وثمانين سورة نزلت في مكة، وتسعاً وعشرين سورة نزلت بالمدينة، وذكر الاختلاف حول بعض السور مثل: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾^١ فقيل إنّها آخر ما نزل بمكة وقيل إنّها مدنية.

^١ سورة المطففين، الآية: ١

ومثل: سورة الفاتحة، التي ذهب بعضهم إلى أنها أول سورة نزلت كاملة في مكة، وقيل نزلت بعد سورة المدثر، وقيل إنها نزلت بالمدينة، والأشهر أنها مكية، وربما قيل بتكرّر نزولها.

مصحف الإمام علي عليه السلام:

لقد ذكر في نصوص عديدة أنّ هناك مصحفاً خاصاً بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وكان يمتاز بعدة أمور:

منها: أنه رتبه على ترتيب النزول فقدّم المتقدّم نزولاً وأخّر المتأخّر نزولاً. ولكن المصاحف التي دوّنت بعد ذلك وخاصة عندما تمّ توحيد رسم المصاحف زمان عثمان بن عفان لم تراخ الترتيب بحسب النزول، وإنما اعتمدت ترتيباً قريباً إلى حدّ ما مع ما هو عليه المصحف المتداول اليوم.

منها: أنه دوّن فيه التأويل والتفسير كما أملاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأسباب نزول الآيات.

منها: أنه بيّن فيه المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، بالإضافة إلى ما ذكر من إثبات أسماء أهل الحقّ وأهل الباطل والمنافقين في المناسبات التي نزلت الآيات فيها.

وإلى هذا المعنى تشير النصوص الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في أنه عليه السلام جمع القرآن كما أنزل، أي كما أنزل ترتيباً وتأويلاً وتفسيراً.

أين مصحف الإمام علي عليه السلام؟

بقي هذا المصحف عند الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وتوارثه أئمة أهل البيت عليهم السلام مع بقية ودائع النبوة، وفي بعض النصوص أنه محفوظ عند الإمام الحجّة المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف^١.

^١ الشيخ الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٤٦٢.

أسئلة حول الدرس

أجب عن الأسئلة التالية؟

- ١- ما هو المعنى المقصود من تقسيم سور القرآن إلى مكّي ومدني؟
- ٢- قيل بأن ما نزل فيه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهو مكّي، وما نزل فيه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهو مدني، كيف ترد على هذا القول؟
- ٣- قيل بأن ما نزل من القرآن فيه ذكر الأمم فإنما نزل بمكة وما كان من الفرائض والسنن فإنما نزل بالمدينة. هل يمكن الاعتماد على هذه الضابطة أم لا؟ ولماذا؟
- ٤- اذكر ثلاثاً من السمات التي اعتبروها علامات لتمييز المكّي.
- ٥- اذكر ثلاثاً من السمات التي اعتبروها علامات لتمييز المدني.

أجب بـ ✓ أو ✗:

- ١- المرحلة المكية هي مرحلة الدعوة التي أسست فيها الدولة الإسلامية.
- ٢- كل ما نزل فيه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ علامة على أنه مدني.
- ٣- كل ما نزل من القرآن فيه ذكر الأمم علامة على أنه مكّي.
- ٤- كل سورة فيها سجدة (الأعم من السجدة المستحبة والواجبة) فهي مكّية.
- ٥- كل سورة فيها إذنٌ بالجهاد فهي مدنية.
- ٦- كل سورة فيها محاججة لأهل الكتاب فهي مدنية.
- ٧- المصحف الذي كتبه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام غير موجود عند أحد.
- ٨- من صفات السور المدنية أنها تبدأ بالحروف المقطعة.
- ٩- ما بدأ بـ "كلا" فهو مدني.
- ١٠- مصحف علي عليه السلام يختلف عن المصحف الذي بين أيدينا بألفاظه.

اختر الإجابة الأصح

- ١- الآية المكية هي التي نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكة المكرمة قبل الهجرة إلى المدينة.
- ٢- الآية المكية هي التي نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكة المكرمة بعد الهجرة.
- ٣- الآية المدنية هي التي نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة فقط.
- ٤- الآية المدنية هي التي نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المرحلة المدنية.
- ٥- الآية المدنية هي التي لم تنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكة.

الدرس الخامس: جمع القرآن وتأليفه

أهداف الدرس:

- ١- أن يتعرّف الطالب إلى معاني جمع القرآن الكريم.
- ٢- أن يتعرّف إلى الفترة الزمنية التي جمع فيها القرآن الكريم.
- ٣- أن يميّز الرأي الصحيح في قضية جمع القرآن الكريم.

تمهيد

بعد أن تعرّفنا في الدُّروس السَّابقة إلى معنى الوحي، ومعنى نزول القرآن الكريم، وإذا ضمّمنا إلى ذلك بعض المعتقدات الثَّابتة بأنَّ النَّبيَّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هو خاتم الأنبياء، ورسائله القرآن آخر الكتب السماوية، ودينه خير الأديان وشريعته آخر الشَّرائع، فمن مجموع ذلك وغيره كان من الضروري أن يعمل النَّبيُّ الأكرم على تثبيت هذا الدِّين والمحافظة عليه بشتى الوسائل، ومن ضمنها المحافظة على القرآن الكريم من الضياع ومن أن تتلاعب به الأيدي المبغضة والحاقدة، من هنا نوّد في هذا الدرس الإطّالة على كيفية كتابة القرآن واهتمام النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين به.

كتابة الوحي

لا ريب في أنّ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم حرص على تدوين الوحي، فاشتهر العشرات من أصحابه بأنهم من كتّاب الوحي في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد عدّ بعضهم ثلاثة وأربعين كاتباً ممّن شاركوا في كتابة الوحي. وهذا يدل على شدة اهتمام الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بأمور الكتابة والتدوين، نظراً لأهمية القرآن الكريم في الدِّين الإسلامي، ومكانته كآخر كتاب سماوي، وضرورة الدقة في الحفاظ عليه بكل ما فيه من خصوصيات، لا سيما أنه المصدر الأول من مصادر الشريعة الإسلامية الحقّة.

متى جمع القرآن؟

كان يفرض النزول التدريجي للقرآن كتابته في صحف متفرقة ومقطّعة، ولا شك أنها لم تكن في بداية الأمر مجموعة ومؤلفة في كتاب له دفتان، وبعد مضي الزمن أصبح القرآن كتاباً كاملاً محفوظاً بين دفتين، فمن الحري أن نسأل متى جمعت الصحف وألّف بينها؟

يذهب الكثير من أتباع مدرسة الخلفاء إلى أن جُمع القرآن الكريم كان بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

بينما يرى أكثر أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام أن القرآن الكريم كان قد جمع في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وبرعايته وتوجيهه، وقبل الخوض في أدلة الفريقين ينبغي الإشارة إلى أن الجمع قد يستعمل بأربعة معانٍ مختلفة، وهذا من شأنه أن يوقع الباحث في الاشتباه مما يستوجب الدقة في هذه الأبحاث.

معنى جمع القرآن الكريم

١- الجمع في الصدر وحفظه.

٢- التدوين: أي جمع السور مدوّنة في مكان واحد، فجمع القرآن معناه جمع سوره وآياته كلها مدونة في صحفٍ، لكن من دون أن تكون مؤلفة في كتاب واحد مجلّدة بغلاف أو دفتين كما هو متعارف اليوم.

٣- جمع النسخ المدوّنة: من أيدي الناس كمقدمة لتوحيد القراءة فيها، وهو ما أمر به عثمان بن عفان في زمان خلافته.

٤- ترتيب الصحف وجمعها في كتاب واحد (وهذا المعنى هو الصحيح والمختار المقصود من البحث كما سيأتي).

روايات جمع القرآن

وهناك مجموعة من النصوص التي نقلت في كتب أهل السنة تنص على أن القرآن قد جمع على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقرىء عليه، وفيما يلي نماذج منها:

١- **أربعة جمعوا القرآن:** في البخاري أن أربعة جمعوا القرآن الكريم على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فعن قتادة قال: سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد^١.

٢- **ستة جمعوا القرآن:** عن الشعبي قال: جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ستة: أبي، وزيد، وأبو الدرداء وسعد بن عبيد، وأبو زيد، ومجمع بن جارية قد أخذه إلا سورتين أو ثلاثة، قال: ولم يجمعه أحد من الخلفاء أصحاب محمد غير عثمان^٢.

٣- **ثلاثة جمعوا القرآن:** وعن محمد بن إسحاق في الفهرست أن الجُماع للقرآن الكريم على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم هم: علي بن أبي طالب عليه السلام وسعد بن عبيد بن معاوية، وزيد بن ثابت^٣.

٤- **جماعة جمعوا القرآن:** وروى الحاكم عن زيد بن ثابت قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نؤلف القرآن من الرقاع^٤.

وهناك روايات أخرى تنص على أسماء أخرى ممن جمعوا القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أحصى بعض المحققين أربعة وعشرين اسماً من مجموع الروايات، وأضاف عليهم غيرهم ممن لم يذكر بشكل قاطع.

^١ الزركشي، البرهان، ج ١، ص ٣٠٤، صحيح البخاري، الباب ٢٠، سورة ٩، من كتاب التفسير.

^٢ الزركشي، البرهان، ج ١، ص ٣٠٥.

^٣ الزنجاني، تاريخ القرآن، ٤٦.

^٤ الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج ٢، ص ٦١١.

المقصود من روايات الجمع

أولاً: هل المقصود من روايات الجمع في الصدر (المعنى الأول)؟

لقد حاول مصيِّف أهل السنّة التوفيق بين هذه الروايات وبين ما ورد عندهم من أن أوّل من جمع القرآن الكريم في مصحف هو الخليفة الأول، ففسّروا الجمع في هذه الروايات بأنّه الجمع في الصدور وحفظ القرآن كاملاً (المعنى الأول).

وهذا الأمر لم يرتضه محققو الشيعة الإماميّة لعدّة أسباب، منها ما يرجع إلى ظاهر روايات الحفظ في عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وهي:

١- إنّ الجمع بمعنى الحفظ في الصدور كاملاً خلاف الظاهر، لذلك لا يذهب إليه إلاّ بقرينة، وهي غير موجودة في هذه الروايات.

٢- لا يعقل أن يكون عدد من حفظ تمام القرآن محصوراً في أربعة أو ستة أو عشرة أشخاص، وذلك لأنّ تعليم وتحفيظ القرآن كان موضع اهتمام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نفسه، وكما أن القراء في زمانه صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يعدّون بالآلاف، فلا بد أن يكون الجمع هنا بمعنى امتلاكه مكتوباً مدوّنًا.

٣- الروايات التي رويت من طرق الفريقين التي تؤكّد على وجود المصحف في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. بالإضافة إلى ما قد يستفاد من وصاياه بالمصحف وأحكامه وما ورد في استحباب القراءة في المصحف نظراً وحفظاً، من الاستدلال على وجود ذلك المصحف وكونه متعارفاً عند الصحابة^١.

ومنها ما يرجع إلى ظاهر روايات الجمع في زمن أبي بكر، وهي:

١- إن روايات جمع القرآن بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مضطربة ومتهافنة، بحيث إنه لا يمكن الاعتماد عليها ولا الركون إلى شيء ثابت فيها.

^١ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ٣٠٥.

فمن حيث الزمان ظاهر بعضها أن الجمع لم يتم إلا في زمان عثمان، بينما تحكي روايات أخرى أن الجمع كان في زمن عمر بن الخطاب، وتنص طائفة أخرى على أنه في زمان أبي بكر.

ومن جهة المتصدّي للجمع، ففي بعضها أنه أبو بكر، وفي بعضها أنه عمر وزيد بن ثابت، بينما في بعضها أنه زيد فحسب. وفي بعض الروايات أن أبا بكر قد فوّض إليه ذلك، حتى أنّ عمر جاءه بأية الرجم فلم تقبل منه.

وقد اضطربت الروايات من جهة كون الجمع كان تاماً في زمان أبي بكر، حتى أنه لم يبق منه شيء إلا دؤن فيه، بينما صريح رواية بقاء شيء منه لم يثبت في المصحف إلى زمان عثمان.

٢- إن روايات جمع القرآن بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا يمكن القبول بها، لأنها تفرض أنّ القرآن الكريم قد جمع بالشاهد والشاهدين، وهي تفترض إمكانية ضياع أجزاء كثيرة منه، حيث زعمت أنهم كانوا يطلبون الآية فلا يجدونها إلاّ عند شخص من الصحابة استشهد أو توفي، وأن بعض الآيات لم يتوقّر لها شاهدان، وهذا كان له عظيم الأثر في زرع الشبهات في نفوس البسطاء الذين صدّقوا هذه الروايات، وغفلوا عما تقتضيه الضرورة والشواهد القطعية والدلائل البينة على تواتر القرآن الكريم، واهتمام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بنشره وتعليمه للمسلمين وتدوينه بشكل واسع، وتوفير كل مقتضيات حفظه وبقائه وتواتره في كل العصور.

٣- والصحيح أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يشرف بنفسه على تدوين القرآن الكريم، وتأليف سوره، وجمع الصحف المدوّنة بشكل مستمر^١. ولم يرحل عن دار الفناء إلا وهو مطمئن النفس مرتاح البال تجاه هذه الأمانة العظمى والمعجزة الكبرى، وأن

^١ راجع: الخوئي، البيان في تفسير القرآن، ص ٩٠.

- علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم، ص ١٠١ - ١٠٧.

- الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ١، ص ٤٣.

المصحف المقروء على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان متوقفاً عند عدد من الصحابة الكرام، بالإضافة إلى القطع والأجزاء المتفرقة عند المئات بل الآلاف من المسلمين، الذين لم تتوَقَّر لهم فرصة الحصول على نسخة كاملة، فكتب ما تيسر له وما سمعه من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة أو أقرأه إياه بعض القراء.

ثانياً: هل المقصود من روايات الجمع التدوين (المعنى الثاني)؟

حاول بعض المحققين التوفيق بين روايات الجمع، فزعم أن روايات الجمع على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إضافة إلى الأدلة الأخرى التي تقتضي ذلك تُحمل على المعنى الثاني من الجمع وهو التدوين للجميع من أحد الوسائل المعروفة، وجمعها في صرة أو ربطها بخيط أو وضعها في إضبارة مثلاً، وأما الجمع في كتاب واحد فهو لم يتم إلا على عدّة صور: جمع الإمام علي عليه السلام وجمع زيد بن ثابت، وجمع أبي بن كعب، وجمع عبد الله بن سعود وهذا المعنى لا يغيّر في الأمر شيئاً، إذ أن التأليف بين الصحف وترتيبها بشكل كتاب محفوظ فيما بعد في إضبارة أو مربوط في خيط هو جمع حقيقي.

ثالثاً: هل المقصود بالجمع لمّ النسخ المدوّنة (المعنى الثالث)؟

روى السيوطي عن ابن اشته قال: اختلفوا في القراءة على عهد عثمان حتى اقتتل الغلمان والمعلّمون فبلغ ذلك عثمان بن عفان فقال: عندي تكذيبون به وتلحنون فيه، فمن نأى عني كان أشدّ تكذيباً وأكثر لحناً، يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً، فاجتمعوا فكتبوا^١.

ولا إشكال في أن عثمان بن عفان أمر بجمع القرآن بالمعنى الثالث المتقدّم فقد قام بكتابة نسخة من المصحف سماها بالإمام، فصارت مرجعاً لمن يريد ضبط نسخته أو استنساخ نسخة منه.

^١ السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ج ١، ص ٢٠٩.

وقد أقره أمير المؤمنين عليه السلام على خطوة توحيد القراءة وقطع الخلاف فيها، خاصة أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان قد نهي عن الاختلاف في القرآن، والاختلاف في قراءته أوضح مصاديق الاختلاف المنهي عنه^١.

نعم يؤخذ عثمان من جهة إحراقه المصاحف الأخرى وأمره بإحراق ما جمع في الأمصار.

ومهما يكن فإنه بعد توحيد المصحف أمر عثمان باستنساخ عدّة مصاحف وأرسلها إلى الأمصار لتكون هناك مرجعاً يؤخذ عنه، لكن ليس هذا المعنى هو محل النزاع والخلاف.

والنتيجة: استظهار المعنى الرابع للجمع، فإن ظاهر الجمع هو الحصول على الجميع مدوّناً، لأنه تقريب ما كان مفترقاً، فالجمع بالمعنى الرابع ترتيب الصحف وجمعها في كتاب واحد هو المتعين وهو الظاهر من القرائن والشواهد والنصوص.

وهذه النتيجة التي توصلنا إليها وهي المقبولة عند كبار علمائنا ومحققينا، كالحار العاملي وابن طاووس والسيد شرف الدين العاملي، والسيد أبو القاسم الخوئي وغيرهم^٢.

وأما عدد تلك المصاحف فقليل أربعة، والمشهور أنها خمسة، بل ذهب بعضٌ إلى أنها سبعة مصاحف، أرسلت إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة، وبقي أحدها في المدينة^٣. والجدير بالذكر أن لا وجود لهذه المصاحف في عصرنا الحاضر.

^١ السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ج ١، ص ١٦٦.

^٢ راجع: السيد جعفر مرتضى حقائق هامة حول القرآن الكريم، ص ٨٨-٨٢.

^٣ السجستاني، كتاب المصاحف، ص ٤٣.

الصغير، تاريخ القرآن، ص ٩٣.

أسئلة حول الدرس

أجب عن الأسئلة التالية؟

- ١- هل تمّ جمع القرآن في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أم بعد وفاته، أعطِ شاهداً على ذلك؟
- ٢- لماذا لا يمكن الالتزام بأن معنى جمع القرآن هو حفظه في الصدور؟
- ٣- ما هو المعنى المتعين للجمع بحسب الظاهر من القرائن والشواهد والنصوص؟
- ٤- بأي معنى من معاني الجمع قام عثمان بجمع القرآن الكريم؟

أجب بـ ✓ أو ✗:

- ١- جُمع القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهذا رأي السنة والشيعة.
- ٢- كان النزول التدريجي للقرآن يفرض كتابته في صحف متفرقة ومقطّعة.
- ٣- إن الجمع بمعنى الحفظ في الصدور كاملاً هو غير موافق للظاهر من الحفظ.
- ٤- الروايات التي رويت من طرق الفريقين تؤكد على عدم وجود المصحف في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.
- ٥- الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يشرف بنفسه على تدوين القرآن الكريم، وتأليف سوره.
- ٦- الجمع في كتاب واحد لم يتم إلا في عهد أبي بكر.
- ٧- أقرّ أمير المؤمنين علي عليه السلام خطوة عثمان بن عفان بتوحيد القراءة وقطع الخلاف فيها.
- ٨- أمر عثمان باستنساخ عدّة مصاحف وأرسلها إلى الأمصار.
- ٩- الجمع هو بمعنى ترتيب الصحف وجمعها في كتاب واحد هو المتعيّن من القرائن والشواهد والنصوص.
- ١٠- إن جمع القرآن في نسخة واحدة حفظه من الضياع والتلف.

أكمل العبارة بشكل تعطي الرأي الصحيح في المسألة:

القرآن - حَقَّاز - الكتاب - رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - الصحابة

لقد تم جمع القرآن في عهد.....، واهتم به المسلمون الأوائل أقصى درجات الاهتمام، في مجال تعلم أحكامه وحفظه، لدرجة أصبحت فيها مكانة الفرد الاجتماعية تقاس بقدر حفظه من سور القرآن الكريم، حتى أصبح عدد..... القرآن من الكثرة بحيث أنه في إحدى المعارك قتل فيها أربعة آلاف منهم.

وكذلك الحال في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حينما استشهد سبعون رجلاً من..... الذين حفظوا القرآن في معركة بئر معونة، وهي إحدى المناطق المجاورة للمدينة.

من هذين المثليين (وأمثالهما كثير) يتضح لنا أنّ حفظه وقراءه ومعلّمي القرآن الكريم من الكثرة بحيث يستشهد منهم في معركة واحدة ذلك العدد الضخم. وهذا طبيعي جداً إذا ما نظرنا إلى طريقة تعامل المسلمين مع.....، باعتباره القانون الحاكم للنفوس، و..... المقدّس الذي لا يوجد سواه.

الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٨، ص ٢٤.

الدرس السادس: رسم القرآن، والقراءات

أهداف الدرس:

- ١- أن يتعرّف الطالب إلى كيفية دخول علامات التنقيط والتشكيل والإعجام على المصحف الشريف.
- ٢- أن يتعرّف إلى كيفية نشوء القراءات القرآنية.
- ٣- أن يميّز أسانيد القراءات القرآنية المختلفة.

تمهيد

لقد اهتم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن الكريم، وقد اعتنى بأن يكون بين يديه كتاب للوحي، وكان يشدّد على المحافظة على القرآن الكريم ويوصي بالاهتمام به، كي لا يصيبه ما جرى على الكتب السماوية السابقة، وقد عمل المسلمون بوصية نبيهم واهتمّوا بكتابة القرآن وحفظه ورسمه وتناقله وعدم دخول أي كلام غير إلهي فيه، ونحن في هذا الدرس نتعرّض للرسم القرآني وكيف دخل الإعراب والإعجام والتشكيل إلى القرآن، وكيفية نشوء القراءات لا سيما القراءات المشهورة.

التنقيط والشكل

كانت كتابة المصاحف حتّى العثمانية منها مجرّدة عن علامات الشكل والتنقط والإعجام، حيث إنّ الخط الكوفي كان إلى ذلك الحين مجرّداً عن الزوائد، بل لم يدوّن في تلك المصاحف أي نوع من أنواع الزيادة التوضيحية مثل أسماء السور وأرقام الآيات.

١- وضع الحركات:

وأوّل من تصدّى لوضع الحركات الإعرابية هو أبو الأسود الدؤلي (المتوفى سنة ٦٩ هـ) وذلك بعد أن سمع من يلحن بالقراءة، فاستعمل مداداً يخالف لونه اللون

الذي كتب به القرآن، وقال للكاتب: "إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، وإن ضمنتُ فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة نقطتين، وفي نسخة: فاجعل النقطة من تحت الحرف" ^١، وقيل إنه جعل للفتح نقطة فوق الحرف، وللضم نقطة إلى جانبه، وللکسر نقطة أسفله، وللتنوين نقطتين ^٢.

والجدیر بالذكر هنا أن أبا الأسود الدؤلي كان قد أخذ أصول النحو عن أمير المؤمنين عليه السلام، الذي وضع له قواعدهُ ولقَّنه أصوله وأمره بتفصيل ما أجمله له ليرجع إليه من كان في لسانه عجمة للتخلص من اللحن في الكلام.

٢- وضع النقاط والحركات:

وقد أكمل عمل أبي الأسود من بعده اثنان من تلامذته، هما: يحيى بن يعمر العدواني (توفي عام ٩٠ هـ تقريباً) ونصر بن عاصم الليثي (توفي عام ٨٩ هـ) حيث وضعا النقاط على الحروف أزواجاً وأفراداً، في عملية أطلق عليها اسم الإعجام، وذلك للتمييز بين الحروف المتشابهة في الرسم، فصار لكل حرف صورة تميّزه عن صورة غيره من الحروف، كما هو المتعارف في كتابتنا اليوم ^٣.

ثم تلا ذلك تطوير علامات الإعراب والشكل فوضع علامة للسكون وغيرها من العلامات.

وقد اعتمدوا في البداية للتمييز بين نقاط الإعجام ونقاط الحركات اختلاف اللون، فاستعملوا ثلاثة ألوان، لوناً للكتابة، ولوناً للنقط التي تميز الحروف المعجمة من المهملة، ولوناً للنقط التي ترمز إلى الحركات، وربما وصل الأمر إلى استعمال

^١ ابن النديم، الفهرست، ٤٥.

^٢ الصغیر، تاريخ القرآن، ١٣١.

^٣ م، ١٣٣-١٣٤.

أربعة ألوان كما نقل عن أهل الأندلس^١.

لكن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٠-١٠٠هـ) ابتدع أشكال الحركات، فميّزها عن نقاط الحروف، فجعل لكل حركة حرفاً صغيراً بدل النقط، فوضع للضمة واواً صغيرة، وللكسرة ياءاً مردفة تحت الحرف، وللفتحة ألفاً مائلة فوق الحرف. وأضاف إلى ذلك علامة الهمز والتشديد والرّوم والإشمام^٢. واستمرت حركة وضع الاصطلاحات والعلامات التوضيحية، فوضعت علامات نهاية الآيات وقسم القرآن إلى الأخماس والأعشار، ووضعت إشارات إلى أحكام السجود الواجب والمندوب وهكذا.

أما على صعيد الرسم القرآني أي الإملاء فقد بقي الرسم العثماني هو الأساس.

والحقيقة أن عملية التنقيط ووضع الحركات الإعرابية قدّمت خدمة عظيمة ووضعت حدّاً للاختلاف في القراءة التي كانت بلغت مستوى خطراً، كما سيأتي الإشارة إليه.

القراءات القرآنية

لا يكاد يخلو كتاب تفسير من التعرّض لذكر القراءات المتعدّدة للكثير من مفردات القرآن، وهذه القراءات تنسب إلى قرّاءٍ معيّنين، وقد أُحصي منها عشرة مشهورة، أو سبعة هي الأشهر، وإلاّ فإنّ عدد القراءات الشاذّة تزيد عن ذلك بكثير.

^١ الزنجاني، تاريخ القرآن، ٩٨.

^٢ الصغير، تاريخ القرآن، ص ١٣٥-١٣٤. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج ٤، ص ١٤٨.

١- منشأ القراءات:

هناك اتجاهان في شأن نشوء القراءات القرآنية ومصدرها:

الأول: اجتهاد القراء:

إنّ المصحف حتّى المصحف العثماني قد كتب مجرداً عن التنقيط والحركات الإعرابيّة، وهذا أدّى إلى الاختلاف في قراءته، نتيجة عدم حفظ المعلّمين القراءة الصحيحة بدقة، واعتماد الرسم الذي يحتمل عدّة وجوه لخلوّه من الإعجام والإعراب.

فالقراءات على هذا الوجه تكون اجتهادية محضة، أو مروية عن القراء المشهورين منقولة بأخبار الأحاد، مع الاعتراف بأنّ القرآن نزل على قراءة واحدة، دون أن يُعلم الزمن الذي حصل فيه الاختلاف وكيف بدأ.

واستدل لهذا الإتجاه بعدة أدلة أهمها:

١- الروايات: ويدل على الإتجاه الأول: ما ورد في أخبارنا عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، في أنّ القرآن نزل على حرف واحد.

منها: ما روي عن الفضيل بن يسار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن الناس يقولون إن القرآن نزل على سبعة أحرف فقال عليه السلام: "كذبوا أعداء الله، ولكنه نزل على حرف واحد من عند الواحد"^١.

منها: ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام: "إن القرآن واحد نزل من عند واحد ولكن الاختلاف يجيء من قبل الرواة"^٢.

^١ الشيخ الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٦٣٠.

^٢ م.ن.

ومنها: ما روي عن سليمان بن صرد عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: "أتاني جبرئيل فقال: اقرأ القرآن على حرف واحد"^١.

ويدلّ عليه أيضاً: أنّ الخليفة الثالث عثمان بن عفان جمع الناس على قراءة واحدة كما يقولون، فهو اعتراف ضمني بأنّ القرآن واحد نزل بقراءة واحدة، وإلا لما كان له أن يمنع القراءات الأخرى ويحمل الناس على قراءة واحدة، إلا أن يكون اجتهاداً منه.

وقد تبين هذا الاتجاه أكثر من واحد من مصنّفي أهل السنّة، وصرّحوا بأنّ سبب الاختلاف في القراءات هو خلوّ المصاحف الأولى من النقط والشكل. فقد نقل ذلك عن ابن أبي هاشم^٢، وابن جرير الطبري^٣ وغيرهما.

٢- تواتر القراءات:

إنّ القراءات مروية بالأسانيده عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بغضّ النظر عن كتابة المصحف الشريف. وقد ادّعى بعض تواتر القراءات السبعة المشهورة^٤.

^١ المتقي الهندي، كنز العمال، ج ٢، ص ٣٤.

^٢ القسطلاني، فتح الباري، ج ٩، ص ٢٨.

^٣ الصغير، تاريخ القرآن، ص ١٠٩-١٠٧.

^٤ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج ١، ص ٢٥٨.

فالقراءات على هذا الوجه يُدعى أنّها كلّها قرآن، وأنّ القرآن نزل بقراءات متعدّدة ومتواترة.

الاتجاه الثاني: ويعتمد على تفسير الأحرف السبعة بالقراءات واستدل لهذا الاتجاه بعدة أدلة منها:

- ما رووه عن النبي¹ صلى الله عليه وآله وسلم من أن القرآن الكريم نزل على سبعة أحرف²، فزعموا أن الأحرف السبعة هي القراءات السبعة المشهورة.

حتى أن بعضهم يدّعي أن عثمان بن عفان فرّق هذه القراءات على المصاحف التي دوّنّها، لكي تحفظها الأمة كما نزلت من عند الله تعالى، وكما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا هو سبب اختلاف رسوم مصاحف أهل الأمصار³.

والاستدلال برواية نزول القرآن على سبعة أحرف غير تام:

أ: فإن هذه الرواية معارضة بما روي عن أئمة أهل البيت عليه السلام وهم أعلم بما نزل فيه من أن القرآن واحد نزل من عند الواحد، على حرف واحد وأن الاختلاف يأتي من قبل الرواة كما تقدّم.

ب: لا دليل على أن المراد بالأحرف السبعة القراءات السبعة، فإن بعض الروايات فسّرت الأحرف بأنّها أساليب القرآن من الأمر والنهي والتغيب والترهيب والجدل والأمثال والقصص⁴، ويظهر من روايات أخرى أن الأحرف إشارة إلى معاني القرآن وتأويلاته، فقد روي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: "تفسير القرآن على سبعة أوجه، منه ما كان، ومنه ما لم يكن بعد، تعرفه الأئمة"⁵.

ج: إن روايات نزول القرآن على الأحرف السبعة متضاربة، فبعضها يقول أنّها سبعة، وبعضها يقول أنّها خمسة، وبعضها يقول أنّها أربعة وربما ثلاثة، فلا يعلم الصحيح منها.

والنتيجة أن مقولة تفسير الأحرف السبعة بالقراءات غير مقبولة ولا يصح الاعتماد عليها.

¹ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج ١، ص ٢٦٣-٢٥٧. الباقلاني، نكت الانتصار لنقل القرآن، ص ٤١٥.

² راجع مصادر الحديث في: السيد جعفر مرتضى، حقائق هامة حول القرآن الكريم، ص ١٧٨-١٧٧.

³ السيد جعفر مرتضى، حقائق هامة حول القرآن الكريم، ص ٢٢٠.

⁴ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤ ص ٩٤.

⁵ الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٩٧.

٣- اختلاف مصاحف الأمصار

تُصرّح بعض النصوص أن عثمان بن عفان لما أتى بالمصحف بعد أن فرغوا منه، نظر فيه فقال: قد أحسنتم وأجملتم أرى فيه شيئاً من لحن ستقيّمه العرب بألسنتها^١.

وهذا يدل على أن الدقّة التي توخّاها كتّبة القرآن آنذاك لم تكن مانعة من وقوع بعض اللّحن غير المهم في طريقة الرسم القرآني، ولذا اعتمدوا على أنّ العرب ستقومها بألسنتهم، ولو كان ذلك على مستوى الاختلاف الجذري لما كان يسكت عليه.

بالإضافة إلى أن تلك المصاحف كانت خالية عن النقط والحركات الإعرابية - كما تقدّم - مما جعل إمكانية اختلاف قراءتها على مستوى عالٍ، ونحن لا ندري مقدار هذا الاختلاف المزعوم في المصاحف العثمانية، وما نقل في المقام لا يخلو أن يكون مجرد دعاوى غير مدعّمة بأدلة قاطعة، وهذا مما لا يجوز الوقوف عنده أمام النص المتواتر والقراءة المتواترة.

٤- سند القراءات

أما دعوى كون القراءات مروية عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فهنا لا بد من التعرّض لأمرين:

الأول: أنّ القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد، وإنما بالتواتر الموجب للاعتقاد اليقيني، بأنه هو كلام الله النازل على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وعليه فأبي قراءة لا بد من إسنادها بأسانيد متواترة، ولا يكفي مجرد الرواية بسند واحد أو سنيين بما لا يخرجها عن الآحاد. وهذا أمر مسلم لا يناقش فيه أحد.

^١ السجستاني، كتاب المصاحف، ص ٤١.

الثاني: إن القراءات المنقولة في كتب التفسير وغيرها كلها غير متواترة، وقد كفانا البحث السيد أبو القاسم الخوئي قدس سره في كتاب "البيان" ^١، وقد أورد ترجمة القراء السبعة وأثبت أن قراءتهم غير متواترة بل بعضها لم تثبت بسند صحيح أصلاً.

والقراء السبعة هم:

- ١- عبد الله بن عامر الدمشقي، ولد سنة ٨هـ وتوفي سنة ١١٨هـ، قيل قرأ على المغيرة.
 - ٢- ابن كثير المكي ولد سنة ٤٥هـ وتوفي سنة ١٢٠هـ، قيل إنه قرأ على ابن السائب.
 - ٣- عاصم بن بهدلة الكوفي توفي سنة ١٢٧ أو ١٢٨هـ، وقيل إنه قرأ على زر بن حبيش وأبي عبد الرحمن السلمي، وأبي عمرو الشيباني، ومن أشهر من روى عنه حفص بن عمر.
 - ٤- أبو عمرو البصري ولد سنة ٦٨هـ وتوفي ١٥٤هـ، أكثر القراء شيوخاً.
 - ٥- حمزة الكوفي ولد سنة ٨٠هـ وتوفي سنة ١٥٦هـ قرأ على سليمان الأعمش وحران بن أعين وغيرهما.
 - ٦- نافع المدني مات سنة ١٦٩هـ، أخذ عن جماعة من تابعي أهل المدينة.
 - ٧- الكسائي الكوفي مات سنة ١٨٩هـ، أخذ القراءة عن حمزة الزيات.
- ومن تصفح حال القراء وتراجهم يظهر أن قراءاتهم تلقوها عن مشايخهم بطرق الأحاد، وكثير من القراء أنفسهم لم يكن ثقة أو أن شيوخه لم يكونوا ثقات. والمهم هو عدم إمكان الركون إلى شيء منها. ولا يكفي أن يدعى تواتر القراءة إلى القراء أنفسهم فإن المطلوب التواتر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو غيرها.

^١ راجع: السيد الخوئي، البيان في تفسير القرآن، ص ١٤٧-١٢٦.

ثم إن احتجاج كل واحد من القراء على صحة قراءته وإعراضه عن قراءة غيره دليل على أن القراءات لم تكن متواترة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولم تكن متعدّدة في الأصل، وإلا لم يكن هناك حاجة لكل ذلك، فإن التعدّد يكون عندئذ هو الطبيعي.

ومهما يكن فإن عدم تواتر القراءات لا يضر بتواتر القرآن لعدم الملازمة بينهما، كما ان تواتر القرآن لا يستلزم تواتر القراءات، لأن الاختلاف في كيفية الكلمة لا ينافي الاتفاق على أصلها. ومع اتفاق آراء جمهور الفصحاء والبلغاء وأرباب النحو على قراءة عاصم الكوفي، وحيث أن أدقّ رواته هو حفص دون سائر تلامذته، فقد تداول المسلمون هذه القراءة واتفقوا عليها، ومع ملاحظة أخبار أهل البيت عليهم السلام التي سيأتي ذكرها لا يبقى إشكال في الأخذ بما حينئذ لخروجها عن الشاذ والنادر.

نمط اختلاف القراءات

من يتتبع القراءات المختلفة يصل إلى حدّ الاطمئنان بأنّها نشأت من اختلاف الرسم أو اختلاف اللهجات أو عدم وجود النقاط الإعجمية للحروف وعدم وضع الحركات الإعرابية، ولتقريب ذلك إلى الذهن أكثر نأتي بأمثلة:

١- قوله تعالى: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ﴾^١ قرئ بكسر الكاف وبضمّها وقال الطبرسي: هما لغتان. وهذا يدل على أن منشأ الاختلاف هنا هو اختلاف اللهجة العربية من قبيلة لأخرى، وكلّ قرأ بلغته.

٢- ومثله قوله تعالى: ﴿يُضَارُّ﴾^٢ قرئ بفتح الراء وبضمّها.

٣- قوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾^٣ قرئ بالبناء للمفعول في الأول وللفاعل

^١ سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.

^٢ سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

^٣ سورة التوبة، الآية: ١١١.

في الثاني وبالعكس. وهذا يبدو أنه من عدم الحفظ، واحتمال الرسم للقراءتين، واتحاد المعنى.

٤- ﴿مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾^١ قرأ ابن مسعود بفتح الميمين.

٥- ﴿حَتَّى يَطْهَرْنَ﴾^٢ قرئ يطهَرْنَ بالتشديد، وهذا ناشيء من عدم الحركات الإعرابية.

٦- ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾^٣ قرئ المجيد بالرفع والجر وهذا من الاختلاف بالتفسير وعدم حفظ القراءة.

٧- ﴿بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾^٤ قرئ باعد على وزن الفعل الماضي وفعل الأمر.

٨- ﴿يَعْرِشُونَ﴾^٥ قرئ بضم الراء وبكسرهما.

٩- ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾^٦ قرئت لكن بالتشديد والتخفيف ويتبع ذلك رفع الشياطين ونصبها.

١٠- ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾^٧ قرئ فتثبتوا، وهذا نوع من الاختلاف ناشيء من عدم وجود نقط الإعجام.

١١- يعلمون وتعلمون في أكثر من موضع اختلف في قراءتها بالياء والتاء على الخطاب والغيبة.

١٢- ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾^٨ قرئ لم يروها في الموضعين من التوبة.

١٣- ﴿نَنْشُرُهَا﴾^٩ قرئ ننشرها. وهذا كله لعدم التنقيط.

^١ سورة هود، الآية: ٤١.

^٢ سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

^٣ سورة البروج، الآية: ١٥.

^٤ سورة سبأ، الآية: ١٩.

^٥ سورة الأعراف، الآية: ١٣٧، وسورة النحل، الآية: ٦٨.

^٦ سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

^٧ سورة الحجرات، الآية: ٦.

^٨ سورة التوبة، الآية: ٢٦، الآية: ٤٠.

^٩ سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

١٤ - ﴿يَقْضُ الْحَقُّ﴾^١ قرء ويقضي الحق وهذا مثال لتشابه الرسم والخطأ في التشخيص.

هذه نماذج بسيرة وأغلب الاختلافات من هذا القبيل.

وهناك اختلافات في زيادة كلمة ونقصانها، واستبدال حرف جر بآخر وأمثال ذلك مما ينشأ من سهو الحافظ.

وهناك اختلافات ناشئة من الخلط بين التفسير والتأويل ومتم القرآن فيتوهم أن ما ورد على الألسنة للتفسير أنه من أصل القرآن.

ونحن لا ننفي بعض المحاولات العمدية للتحريف، خاصة إذا عرفنا أن بعض أهل الكتاب كان يطلب منه نسخ المصحف وهو لا يؤمن من التلاعب والزيادة والتحريف. ومن هذا القبيل ما ورد أن عبد الرحمن بن أبي ليلى كتب له نصراني من أهل الحيرة مصحفاً بسبعين درهماً، ومنذ سنوات قليلة حاول يهود العصر في إسرائيل تحريف القرآن في الآيات التي ترتبط بهم وباءت محاولتهم بالفشل، كما فشلت كل المحاولات السابقة وبقي القرآن الكريم محفوظاً بعيداً عن كل ريب.

وفي الختام لا بد من الإشارة إلى ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام من الأمر بالقراءة "كما يقرأ الناس" أو "كما علمتم" والنهي عن متابعة القراءات الشاذة.

روي أنه قرأ رجل على الإمام الصادق عليه السلام حروفاً من القرآن ليس على ما يقرؤها الناس فقال الإمام أبو عبد الله عليه السلام "كف عن هذه القراءة، اقرأ كما يقرأ الناس..."^٣.

وروي عنه عليه السلام أنه قال: "اقرأوا كما علمتم"^٤.

^١ سورة الأنعام، الآية: ٥٧.

^٢ عبد الرزاق، المصنف، ج ٨، ص ١١٤.

^٣ الشيخ الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٦٣٣.

^٤ المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦٣١.

أسئلة حول الدرس

أجب عن الأسئلة التالية:

- ١- ما هي الأسباب التي ذُكرت لنشوء القراءات المتعددة للقرآن؟
- ٢- ما هو رأي البيت عليهم السلام في موضوع التعدد في القراءات؟
- ٣- ما هو المعنى الصحيح للأحرف السبعة التي نزل القرآن عليها؟
- ٤- قيل إن القراءات المتعددة للقران مروية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كيف تردّ على ذلك؟
- ٥- ما هي القراءة التي كان عليها أئمة أهل البيت عليهم السلام والتي هي متداولة اليوم؟

أجب بـ ✓ أو ✗:

- ١- أوّل من تصدّى لوضع الحركات الإعرابية هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.
- ٢- أوّل من تصدّى لوضع علامات الوقف هو الخليل بن أحمد الفراهيدي.
- ٣- الإعجام هو وضع النقاط على الحروف، لا الحركات.
- ٤- التشكيل هو وضع الحركات على الحروف لا النقاط.
- ٥- تواتر القراءات: يعني أنّها القراءات المروية بالأسانيد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بغضّ النظر عن كتابة المصحف الشريف.
- ٦- إن مقولة تفسير الأحرف السبعة بالقراءات غير مقبولة ولا يصحّ الاعتماد عليها.
- ٧- القرآن لا يثبت بالتواتر، وإنما بأخبار الأحاد الموجبة للاعتقاد اليقيني.
- ٨- عدم تواتر القراءات لا يضرب بتواتر القرآن.
- ٩- إن القراءات المنقولة في كتب التفسير وغيرها كلها غير متواترة.
- ١٠- إن احتجاج كل واحد من القراء على صحة قراءته وإعراضه عن قراءة غيره دليل على أن القراءات كانت متواترة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

أكمل العبارة بشكل تعطي الرأي الصحيح في المسألة:

الحروف - المتعدّد - عنصر الاجتهاد - القراءات - ضبط الكلمات القرآنية

نلاحظ أن بعض الألفاظ القرآنية تُقرأ بأساليب مختلفة، تؤدّي في بعض الأحيان إلى الاختلاف في معنى اللفظ ومؤداه، هذا الشيء الذي أدى في نهاية تطوره إلى ولادة علم.....

وقد حاول بعضهم أن يُفسّر ظاهرة تعدّد القراءات في البحوث التفسيرية العامة على أساس أن القرآن الكريم جاء به الوحي إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بهذا الشكل....., وأنه نزل على عدّة حروف، وأن القراءات المتعدّدة هي هذه.....المتعدّدة.

وإذا كنا نقبل هذه المعالجة في بعض الحالات لا يمكن أن نقبلها بشكل مطلق وفي جميع الحالات، خصوصاً في الحالات التي يكون لاختلاف القراءة تأثير على المعنى، ويكون المعنى بدوره مرتبطاً بحكم شرعي كما في "يطهرن" بالتخفيف و "يطهّرن" بالتشديد. وحينئذ نجد أنفسنا أمام تفسيرين لهذه الظاهرة بشكل عام، أو على الأقل في بعض الحالات:

- أحدهما: هو إهمال..... بشكل معيّن في عهد الرسول من قبل بعض الصحابة أنفسهم، أو نسيان الطريقة الصحيحة لنطق اللفظ نتيجة عدم التدوين.

- والآخر: تدخل..... والاستحسان في القراءة بعد فقدان حلقة الوصل التي كانت تربط بين بعض الصحابة والرسول".

الشهيد السيد محمد باقر الحكيم، علوم القرآن، ص ٢٩٠.

الدرس السابع: سلامة القرآن من التحريف

أهداف الدرس:

- ١- أن يتعرّف الطالب إلى محلّ النزاع في تحريف القرآن.
- ٢- أن يستدلّ على عدم تحريف القرآن الكريم.
- ٣- أن يُميّز بين التحريف المعنوي والتحريف اللفظي.

تمهيد

من الأبحاث المهمّة في علوم القرآن هو بحث دعوى تحريف القرآن الكريم، وهو بحث له ارتباط بالأديان السماوية الأخرى التي حُرِّفت كتبها ولم يبق منها إلا اسمها وبعض تعاليمها، ولذلك لا يمكن الاعتماد عليها، وسرت هذه المشكلة ليُدعى أن القرآن قد حُرِّف أيضاً كسائر الكتب السابقة، وهذه الدعوى باطلة وغير صحيحة، ويمكن البرهان على ذلك من خلال القرآن الكريم ومن خلال الروايات الشريفة. ولتوضيح هذا البحث لا بد فيه من التفرقة بين التحريف المعنوي والتحريف اللفظي، وتوضيح تحريف النقيصة وتحريف الزيادة.

القرآن ونفي التحريف

يقول الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^١. هذه الآية الشريفة تدلّ دلالة تامّة على سلامة القرآن الكريم، وأنه محفوظ من التغيير والتحريف اللفظي، قال العلامة الطباطبائي قدس سره في تفسيرها: "... فهو ذكر حيّ خالد مصون من أن يموت ويُنسى من أصله، مصون من الزيادة عليه بما

^١ سورة الحجر، الآية: ٩.

يبطل به كونه ذكراً، مصون من النقص كذلك، مصون من التغيير في صورته وسياقه بحيث يتغير به صفة كونه ذكراً لله، مبيّناً لحقائق معارفه، فالآية تدلّ على كون كتاب الله محفوظاً من التحريف، بجميع أقسامه بجهة كونه ذكراً لله سبحانه، فهو ذكر حيّ خالد^١.

ويقول السيد أبو القاسم الخوئي قدس سره: "فإنّ في هذه الآية دلالة على حفظ القرآن من التحريف، وأن الأيدي الجائرة لن تتمكّن من التلاعب فيه"^٢. وقريب من هذا الكلام صدر عن الفخر الرازي والفيض الكاشاني والشيخ الطبرسي وغيرهم.

والمراد من الذكر في الآية المحكي بهذا القرآن الملفوظ أو المكتوب وهو المنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والمراد من حفظه صيانه من التلاعب والتغيير والضياع، ولا شك أن مثل هذا الحفظ لا يصحّ إلاّ مع بقائه بمتناول أيدي البشر عامة الذين نزل لهدايتهم. ولا يصحّ إطلاق مثل هذا الحفظ على بقائه بأيدي جماعة خاصة مع عدم إمكان وصول الناس إليه، ولذا صحّ أن يقال إن بني إسرائيل حرّفوا التوراة والإنجيل مع بقائها مكتومة عند أفراد معيّنين.

السنة ونفي التحريف

وردت روايات عديدة تقتضي سلامة القرآن وحفظه من أيدي التحريف وقد قمنا بتقسيمها إلى طائفتين:

الطائفة الأولى: روايات العرض على القرآن

ما ورد من الروايات تأمر بعرض الأخبار على كتاب الله بهدف تمييز الروايات

^١ العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ١٠٣ و ١٠٤.

^٢ السيد الخوئي، البيان في تفسير القرآن، ص ٢٢٦.

الصحيحة عن الموضوع، فهو بمثابة الميزان لقياس الصحيح منها من الفاسد، فإذا فُرض أن القرآن الكريم محرفاً فكيف يصح الأمر بالعرض عليه وكيف يتم جعله مقياساً لذلك؟! إذاً لا بد أن يكون المقياس وهو القرآن الكريم سالماً من أي تحريف حتى يصح العرض عليه، ومن أمثلة هذه الطائفة:

ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "تكثروا لكم الأحاديث بعدي، فإذا روي لكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فاقبلوه وما خالف فردوه"^١.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: "كل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف"^٢.

قال الفيض الكاشاني رحمه الله: "وقد استفاض عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام حديث عرض الخبر المروي على كتاب الله لتعلم صحته بموافقته له، أو فساده بمخالفته، فإذا كان القرآن الذي بأيدينا محرفاً فما فائدة العرض"^٣.

الطائفة الثانية: روايات التمسك بالثقلين

الرواية المتواترة التي تأمر بالتمسك بالثقلين: "إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي"^٤ وما في معناها من الروايات الآمرة بالتمسك بالقرآن، واتخاذ إماماً، والتي تصفه بأنه نور وهداية وناصح، وأنه لا عوج فيه، وأنه عصمة للمتمسك به، ونجاة للمتعلق به وأمثال ذلك.

وهذه النصوص كلها تقتضي سلامته وحفظه على تلك الصفة. ولو كان محرفاً لما كان لها أي معنى حينئذ.

^١ السيد جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، ج ٢٦، ص ٧١، وفي معناه: العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٢٥.

^٢ الشيخ الكليني، الكافي، ج ١، ص ٦٩.

^٣ الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ج ١، ص ٤٦.

^٤ هذا الحديث بألفاظ متقاربة رواه نيف وثلاثون صحابياً، وهو متواتر لفظاً، ويعتبر من أدلة الإمامة. راجع رواه ومصادره في خلاصة عبقات الأنوار للسيد الميلاني الأجزاء الثلاثة الأولى.

تواتر القرآن الكريم

تقدّم في بحث جمع القرآن الكريم أن القرآن الكريم متواتر حفظاً وتدويناً، فعلى صعيد التدوين، تقدّم أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم استخدم في كتابة الوحي عشرات الكتاب وانتشر التدوين بصورة واسعة جداً، وعلى صعيد الحفاظ فقد كان عددهم بالملفات بل الألوف، وقد استمرّ هذا التواتر في كل الأجيال وجميع العصور حتى يومنا هذا.

فلا يُعنى بدعاوى التحريف التي تُخالف القطع وظاهر الكتاب والسنة النبوية الثابتة.

شواهد تاريخية أخرى

توجد عدّة شواهد تاريخية على أن تحريف القرآن لم يكن متيسراً حتى لمن كان يرغب بذلك.

فمن ذلك قول عمر بن الخطاب: "لولا أن يقول الناس إن عمر زاد في كتاب الله لكتبت آية الرجم بيدي".^١

ومن ذلك أن عثمان أراد حذف الواو من آية الكنز: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...﴾^٢ ولكن الصحابة اعترضوا عليه ومنعوه من ذلك حتى أن أبيّ قال له: لثلحقتّها أو لأضعنّ سيفي على عاتقي، فألحقوها.^٣

واتفق مثل ذلك مع الخليفة الثاني في "واو": ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾^٤.

^١ السيوطي، الإتقان في علم القرآن، ج ٢، ص ٢٥-٢٦.

^٢ سورة التوبة، الآية: ٣٤.

^٣ السيوطي، الدر المنثور، ج ٣، ص ٢٣٢.

^٤ سورة التوبة، الآية: ١٠٠.

^٥ المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٦٩.

وسواء فُسر ذلك بأنه سهوٌ وقلةٌ حفظ أو أنها محاولات هادفة فإنّ المسألة لم تكن متيسرة لهم، وقد سخر الله سبحانه من يحفظ القرآن الكريم من التغيير والتبديل.

دعاوى التحريف

يستعمل لفظ التحريف ويراد منه أحد معنيين:

الأول: التحريف المعنوي، وذلك بحمل الألفاظ على غير معانيها وتأويلها بما لم تنزل فيه بلا دليل لغوي ولا رواية صحيحة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

وهذا النمط من التحريف وقع بلا شك من قِبَل الكثير من المذاهب وأهل الأهواء والمقالات الفاسدة الذين حاولوا الاستفادة من الكتاب لنصرة مقالاتهم الباطلة، ولأجل ذلك نهي أمير المؤمنين عليه السلام عن مجادلة الخوارج بالكتاب عندما بعث إليهم ابن عباس فقال له: "لا تخصمهم بالقرآن فإن القرآن حمّال ذو وجوه تقول ويقولون ولكن خصمهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً"^١.

وذلك لأنهم كانوا يؤولون الآيات التي يمكن أن يخصمهم بها لإلزامهم بوجوب طاعة أمير المؤمنين على وفق أهوائهم وآرائهم. بخلاف نصوص السنة الصحيحة والصريحة بالمطلوب.

الثاني: التحريف اللفظي، ويراد منه تحريف ألفاظ القرآن الكريم بالزيادة أو النقصان أو التبديل، وهذا هو المقصود من البحث وهو محل النزاع في بحث تحريف القرآن، وما قدّمناه من أدلة على سلامة القرآن يقصد سلامته من هذا النوع من التحريف. لكن المؤسف أن بعض المحدثين الشيعة حُذعوا بالأخبار المتفرقة التي تدلّ على وقوع التحريف بالقرآن أو التي توهموا دلالتها على ذلك،

^١ الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة جمع الشريف الرضي، الكتاب ٧٧.

وهي أخبار عاتية في الأعم الأغلب، وقد أساءوا نتيجة ذلك إلى القرآن الكريم ووجهوا طعنة خطيرة للإسلام بسبب هذا التوهم.

وجاء بعد ذلك الذين يتربصون الدوائر باتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وتلقفوا هذا الكلام وأخذوه مطعناً للإجهاز على التشيع وتشويه صورته. فلا يخلو كتاب يُصنّف اليوم ضدّ التشيع من فصول تستغلّ هذه المقولة وتنسب إلى الشيعة هذه التهمة بسبب ما ذهب إليه هؤلاء المحدّثون، وعلى رأسهم المحدّث الشيخ حسين النوري الذي ألف كتاباً سمّاه "فصل الخطاب في تحريف كتاب ربّ الأرباب"، أورد فيه اثني عشر دليلاً أو توهماً وأسهب في التوجيه، وهذه الأدلة المزعومة نذكر أهمّها في الدرس القادم مع الردّ عليها إن شاء الله تعالى.

أسئلة حول الدرس

أجب عن الأسئلة التالية؟

- ١- يستفاد من القرآن الكريم والروايات الكثيرة أن القرآن محفوظ عن التحريف والتلاعب، اشرح ذلك من خلال بعض النماذج والشواهد.
- ٢- القرآن الكريم متواتر حفظاً وتدويناً، ما هو المقصود بهذه العبارة؟
- ٣- تحدّث عن شاهد تاريخي يكشف عن عدم تيسر تحريف القرآن لمن كان يرغب بذلك؟
- ٤- ما هو الفرق بين التحريف المعنوي والتحريف اللفظي؟
- ٥- كيف نستفيد من رواية التمسك بالثقلين في نفي التحريف؟

أجب بـ ✓ أو ✗:

- ١- إنّ عرض الأخبار على كتاب الله يهدف إلى تصحيح الآيات القرآنية.
- ٢- الرواية المتواترة التي تأمر بالتمسك بالثقلين لا تقتضي سلامة القرآن من التحريف.
- ٣- دعاوى التحريف تخالف القطع وظاهر الكتاب والسنة النبوية الثابتة.
- ٤- التحريف اللفظي: يراد منه تحريف ألفاظ القرآن الكريم بالزيادة أو النقصان أو التبديل.
- ٥- التحريف المعنوي: يعني حمل الألفاظ على غير معانيها وتأويلها.

أكمل العبارة بشكل تعطي الرأي الصحيح في المسألة:

التحريف - محفوظاً - النقص - العناية الكاملة - حي خالد مصون

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ صدر الآية مسوق سوق الحصر وظاهر السياق أنّ الحصر ناظر إلى ما ذكر من ردّهم القرآن بأنّه من أهدار الجنون وأنه صلى الله عليه وآله وسلم مجنون لا عبّرة بما صنع ولا حجر ومن اقتراحهم أن يأتيهم بالملائكة ليصدّقوه في دعوته وإن القرآن كتاب سماوي حق. والمعنى على هذا والله أعلم أن هذا الذكر لم تأت به أنت من عندك حتى يعجزوك ويطلوه بعنادهم وشدة بطشهم وتكلف لحفظه ثم لا تقدر وليس نازلاً من عند الملائكة حتى يفتقر إلى نزولهم وتصديقهم إياه بل نحن أنزلنا هذا الذكر إنزالاً تدريجياً وإنا له لحافظون بما له من صفة الذكر بما لنا من..... به.

فهو ذكر..... من أن يموت وينسى من أصله مصون من الزيادة عليه بما يبطل به كونه ذكراً مصون من..... كذلك مصون من التغيير في صورته وسياقه بحيث يتغيّر به صفة كونه ذكراً لله مبيناً لحقائق معارفه. فالآية تدلّ على كون كتاب الله..... من..... بجميع أقسامه من جهة كونه ذكراً لله سبحانه فهو ذكر حيّ خالد.

السيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره

تفسير الميزان، ج ١٢، ص ١٠٢.

الدرس الثامن: الردّ على أدلّة تحريف القرآن الكريم

أهداف الدرس:

- ١- أن يذكر الطالب بعض أدلّة تحريف القرآن الكريم.
- ٢- أن يردّ على عددٍ من أدلّة تحريف القرآن.
- ٣- أن يُعدّد اثنين من العلماء القدماء والمحدثين ممن يقولون بسلامة القرآن من التحريف.

تمهيد

بعد أن تعرّضنا في الدرس السابق إلى معنى التحريف، وإلى أنواعه، بقي الحديث عن أن من ذهب إلى القول بتحريف القرآن الكريم قد ادّعى عدداً من الأدلة على ذلك، فلم يذهب إلى هذا الرأي جزافاً، وفي المقابل إن من اختار القول بعدم تحريف القرآن كما هو الصحيح عليه أن يتعرّض لكل أدلة المنكرين والردّ عليها، كي لا يكون ادعاء في مقابل ادعاء، ونحن في هذا الدرس نتعرّض لأهم أدلة القائلين بالتحريف والردّ عليها.

أدلة وقوع التحريف:

الأول: ما ورد من روايات تدلّ على أن ما وقع في الأمم السابقة يقع في هذه الأمة أيضاً، ومن المعلوم أن الأمم السابقة حرّفت التوراة والإنجيل، فلا بد أن هذه الأمة كذلك.

ويجاء بأن هذه الروايات عامية المنشأ في الغالب، ومع ذلك فهي ناظرة إلى الحوادث الاجتماعية والسنن التاريخية، ولا يلزم أن يتكرّر كل حدث صغير أو كبير بتفاصيله فلا يصح الاستدلال بها هنا.

الثاني: الروايات التي تظهر كيفية جمع القرآن بحسب ما ورد في كتب القوم، إذ يلزم منها عدم الاطمئنان إلى سلامة الكتاب، كالجمع بالشاهد والشاهدين وأمثال ذلك.

ولكن تقدّم أنّ القرآن كان مدوّناً بكامله عند عدد كبير من المسلمين على زمان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والتواتر متوقّف في كل الطبقات.

الثالث: اختلاف القراءات في مصاحف الصحابة على ما نقله المفسّرون من أهل السنّة، وهو أحد أنواع التحريف، لأن القرآن نزل على حرف واحد.

والجواب: عن هذا أنه تقدّم أن عدم تواتر القراءات شيء وتواتر القرآن شيء آخر، فاختلاف القراءات لا يضرّ بالمادة الأصلية للقرآن.

الرابع: ما ورد من أن أبيّ بن كعب كان أقرأ الأمة، وما ورد في أن آيات مصحفه أكثر مما هو موجود الآن، ويستنتج من ذلك طروء النقص على القرآن.

والجواب: عن هذا أن هذه الروايات أيضاً ضعيفة وعامية وشاذة، لذلك لا يصح الوقوف عندها في مقابل التواتر الفعلي للقرآن. ونضيف إلى ذلك أن الاختلاف بعدد الآيات لا يدل على الزيادة والنقص، لأنهم ربما اختلفوا على أماكن الوقوف والفواصل فأدّى ذلك إلى الاختلاف بعدد الآيات وهذا لا يؤثّر.

الخامس: أن ما فعله عثمان من حمل الناس على قراءة واحدة وإحراق باقي المصاحف يجعل القرآن الكريم في معرض التشكيك وعدم الاطمئنان إلى سلامته، وإذا أضيف إليه مخالفة ابن مسعود لعثمان ينتج عنه وجود تحريفات كانت سبباً لمخالفة ابن مسعود.

الجواب: أنّ عمل عثمان كان بموافقة صريحة من أمير المؤمنين عليه السلام، وأنّها وُحّدت القراءات، وأن مخالفة ابن مسعود لا تدلّ على شيء مما ذكر، لأنه رفض تسليم مصحفه للإحراق، حيث كان يعتزّ به لأنه كتبه على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلا يدلّ على أن المصحف الجديد كان مغايراً لمصحفه، نعم ربما كان ابن مسعود قد خالف في الترتيب أو دوّن بعض التفسير والتأويل فيه، فكان رفضه لذلك أيضاً، وهو ليس من التحريف كما هو واضح.

السادس: الروايات التي تصرّح بوقوع التحريف في القرآن.

والجواب: أن هذه الروايات أكثرها مروى عن السيارى (الغالى) وغيره من الضعفاء، بالإضافة إلى أن المقصود فيها غالباً هو التحريف المعنوي لا اللفظي، وقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام بأنهم أقاموا حروفه وحرفوا حدوده وهي صريحة في التحريف المعنوي.

السابع: وجود ألف رواية أغلبها شيعي تتضمن اختلاف القراءة عمّا هو في المصحف الحاضر، وهذه الروايات الألف فيها ما يلي:

١- إن أكثر من ٢٣٠ رواية منها ترجع إلى السيارى الغالى الملعون على لسان الإمام الصادق عليه السلام، ولا يقبله أحد من علماء الرجال عندنا.

٢- أكثر من ٦٠٠ رواية مكرّرة، ذكرها لتعدّد الطرق أو تعدّد المصدر.

٣- وبعد إسقاط روايات السيارى والمكرّرة فلا يبقى إلا حدود ٨٠ رواية هي عبارة عن روايات اختلاف القراءات أكثرها أخذت من مجمع البيان. والطبرسي في المجمع يروي عن بعض رواة أهل السنّة مثل الكسائي وابن مسعود والجحدري والسلمي والضحاك وقتادة وابن عمر وابن حجّار ومجاهد وعكرمة وعائشة وابن الزبير وحمزة وابن يعمر الشعبي وغيرهم.

مع أنّ الكثير من هذه الروايات ناظر إلى التفسير وشأن نزول الآيات، وقد اختلط التفسير بمتن الآيات فيها بسبب عدم استعمال العلامات المميزة للمتن عن التفسير كما هو المتعارف اليوم.

تصريحات كبار علماء الشيعة:

صرح علماء الشيعة عبر القرون بسلامة القرآن من التحريف، ومع ذلك فإن البعض ممن ينسب إلى الشيعة تهمة القول بالتحريف يهمل هذه التصريحات عمداً

ويتمسك بما ذكره بعض المحدثين لأغراض خبيثة، أو يحمل تلك التصريحات على التقية لإتمام بهتانه. وهذه نماذج ممن صرح بسلامة القرآن من الشيعة:

- ١- الشيخ الطوسي (ت ١٦٤هـ) في التبيان ج ١ ص ٣.
- ٢- الشيخ الصدوق (ت ١٨٣هـ) في كتاب الاعتقادات ص ٩٢ و ٩٣.
- ٣- الشيخ المفيد (ت ٣١٤هـ) في كتابه أوائل المقالات ص ٥٥ و ٥٦.
- ٤- السيد المرتضى (ت ٦٣٤هـ) في جواب المسائل الطرابلسيات حكاه عنه الطبرسي في مجمع البيان ج ١ ص ٥١.
- ٥- الشيخ الطبرسي (ت ٨٤٥هـ) في مجمع البيان ج ١ ص ٥١.
- ٦- الشيخ الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ) له رسالة في إثبات عدم التحريف نقل منها رحمة الله الهندي في إظهار الحق ص ١٢٩.

وفي القرن العشرين:

- ١- السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة ج ١ ص ٦٤.
- ٢- السيد عبد الحسين شرف الدين في أجوبة مسائل جار الله والفصول المهمة ص ١٦٥ و ١٦٦.
- ٣- السيد البروجردي نقله عنه الشيخ لطف الله الصافي في كتاب مع الخطيب في خطوطه العريضة ص ٤٩.
- ٤- السيد محسن الحكيم نقل نص عبارته السيد مرتضى الرضوي في كتابه البرهان على عدم تحريف القرآن ص ٢٥٢.
- ٥- السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسير الميزان ج ١٢ من ص ١٠٤ إلى ١٠٧، وكتاب القرآن في الإسلام ص ٧١.

٦- الإمام السيد روح الله الخميني في كتابه تهذيب الأصول ج ٢ ص ٥٦١.

٧- السيد أبو القاسم الخوئي في كتابه البيان في تفسير القرآن ص ٩٥٢.

وغيرهم كثير.

بل هناك ما يشير إلى أن روايات التحريف لم تكن معروفة عند الشيعة في القرن الثالث الهجري، فهذا الفضل بن شاذان (المتوفي سنة ٦٢ هـ) والذي كان من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام، يطعن في كتابه الإيضاح على أهل السنة روايتهم لروايات التحريف، وهذا يكشف عن أن ذلك لم يكن معروفاً حتى عند المحدثين من الشيعة ذلك الوقت وإلا لما صحّ أن يطعن عليهم بذلك.

ونختم بما ورد في رسالة الإمام الهادي عليه السلام في الردّ على أهل الجبر والتفويض أنه قال: " .. وقد اجتمعت الأمة قاطبة لا اختلاف بينهم أن القرآن حق لا ريب فيه عند جميع أهل الفرق، وفي حال اجتماعهم مقرّون بتصديق الكتاب وتحقيقه، مصيبون، مهتدون...^١".

^١ ابن شعبة الحارثي، تحف العقول عن آل الرسول، ص ٤٥٨، مؤسسة النشر الإسلامي.

أسئلة حول الدرس

أجب عن الأسئلة التالية؟

- ١- يزعم البعض وقوع التحريف في القرآن كما وقع في التوراة والإنجيل وذلك بمقتضى ما ورد من أن ما وقع في الأمم السابقة يقع في هذه الأمة أيضاً، كيف تردّ على هذا الكلام؟
- ٢- اشتبّه المحدث النوري في موضوع تحريف القرآن، فما هو منشأ الشبهة التي وردت على ذهنه؟
- ٣- ما هو رأي علماء الشيعة عبر القرون في موضوع تحريف القرآن؟
- ٤- اذكر دليلين من أدلة التحريف؟
- ٥- هل كان القول بالتحريف من المسائل المشهورة عند علماء الشيعة؟ اذكر عدداً من العلماء القائلين بعدم التحريف؟

كيف تردّ على أدلة التحريف التالية:

- الدليل الأول: اختلاف القراءات في مصاحف الصحابة على ما نقله المفسّرون من أهل السنّة، وهو أحد أنواع التحريف، فالقرآن نزل على حرف واحد.

- الدليل الثاني: ما ورد من أن أبيّ بن كعب كان أقرأ الأمة، وما ورد في أن آيات مصحفه أكثر مما هو موجود الآن، ويستنتج من ذلك طروء النقص على القرآن.

املاً الفراغ بالكلمة المناسبة:

الزيادة والنقيصة - تحريف - بأوصاف خاصة - كالإعجاز - ذكر محفوظ

قد تبين مما فصّلناه أن القرآن الذي أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ووصفه بأنه..... على ما أنزل مصون بصيانة إلهية عن..... والتغيير كما وعد الله نبيه فيه.

وخلاصة الحجة أن القرآن أنزله الله على نبيه ووصفه في آيات كثيرة..... لو كان تغيراً في شيء من هذه الأوصاف بزيادة أو نقيصة أو تغيير في لفظ أو ترتيب مؤثّر فقد أثار تلك الصفة قطعاً لكننا نجد القرآن الذي بأيدينا واجداً لآثار تلك الصفات المعدودة على أتمّ ما يمكن وأحسن ما يكون فلم يقع فيه..... يسلبه شيئاً من صفاته فالذي بأيدينا منه هو القرآن المنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعينه فلو فرض سقوط شيء منه أو تغيير في إعراب أو حرف أو ترتيب وجب أن يكون في أمر لا يؤثر في شيء من أوصافه..... وارتفاع الاختلاف والهداية والنورية والذكرية والهيمنة على سائر الكتب السماوية إلى غير ذلك وذلك كآية مكررة ساقطة أو اختلاف في نقطة أو إعراب ونحوها".

السيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره

تفسير الميزان، ج ١٢، ص ١٠٧.

الدرس التاسع: أسباب التُّزول

أهداف الدرس:

- ١- أن يتعرّف الطالب إلى الخلاف القائم في أسباب نزول الآيات.
- ٢- أن يدرك مدى أهمية أو عدم أهمية معرفة أسباب نزول الآيات.
- ٣- أن يذكر بعض أسباب الاستغناء عن روايات أسباب النزول.

تمهيد

نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الفترة الممتدة من البعثة الشريفة إلى وفاته، وكانت الآيات التي تنزل في المناسبات والأحوال المختلفة تتعرض لمختلف الأغراض الرّسالية، فتارة تنزل الآيات أو السور لتبيّن حكماً ومُحدّد موقفاً يتطلّبه الواقع المعاش، وأخرى تُجيب على سؤال يرفع إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وثالثة تعالج مشكلة حاصلة، وهكذا...، وقد ينزل من القرآن ابتداءً ما يبيّن الأحكام والمعارف الإسلامية، ويقصّ القصص ويضرب الأمثلة الأمر الذي يدخل في الأغراض العامة للرسالة.

وبما أنّ القرآن من عند الله سبحانه إلى الناس قاطبة، والناس في تخاطبهم وتجاوزهم يعتمدون على اللغة لإيصال ما يريدونه من معنى، وفي نفس الوقت اللغة تعتمد في مقام التفاهم والتحاوور على قرائن يبيّن عليها كل من المتكلّم والمخاطب في فهم المراد، كان من الضروري التحدّث عن نوعين من القرائن لاسيما في اللغة العربية.

القرائن الحالّية

ومن المعروف عند أهل العربية أن المتكلم قد يعتمد في مقام التكلّم والتخاطب على قرائن توضح مراده، وتشكّل جزءاً مهماً من أدوات الخطاب، هذه القرائن لا يمكن إهمالها في مجال تفسير الكلام. وهي على نوعين:

١- قرائن مقالية: من نفس اللفظ، فيذكر المتكلم في كلامه قرينة لفظية توصل إلى المعنى الذي يريده، فيقول على سبيل المثال: رأيت أسداً يرمي، فكلمة يرمي: قرينة لفظية مذكورة في نفس الكلام تدل على أن مراده ليس الحيوان المفترس، وإنما الرجل المحارب وأنه كالأسد في شجاعته وقوته مثلاً.

٢- قرائن حالية: كالإشارات والحركات وحال المخاطب والواقع الحاصل والظرف المحيط بالمتكلم أو المخاطب.

فإن المتكلم عندما يورد جملة استفهامية مصدرية بهمزة الاستفهام مثلاً، قد يكون غرضه الاستفهام الحقيقي، وقد يكون غرضه التقرير، وقد يكون غرضه غير ذلك من الإنكار والتعجب وأمثالها. ولا يمكن التمييز بين الأغراض المختلفة هذه إلا من خلال القرائن الحالية غالباً والمقالية أحياناً. مثال ذلك قول تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾^١.

والمناسبات التي كانت تنزل فيها الآيات تُشكّل قرائن حالية تحيط بالنص وتلقي ضوءاً على المراد منه، وهو أمر يجعل لأسباب النزول أهمية خاصة في فهم الآيات. حيث إن معرفة الزمان والمكان وسائر الظروف المحيطة بالنص لها أثر في إمطة اللثام عن مكنونات المراد. وهذا أمر لا يقتصر في نطاق فهم القرآن الكريم وإنما هي قاعدة تجري في كل تخاطب، كالحديث النبوي وكلام المعصومين أيضاً، ومن هنا كان بالإمكان أن يقال إن دراسة السيرة النبوية وخصوصيات المجتمع المكي والمدني وتفاصيل الأحداث التي عاصرت النص لها مدخلة كبيرة في فهم النص. ولا نعي بذلك أن نكتفي بقراءة التاريخ أو السيرة ونفسر القرآن على ضوء ذلك، فإن دراسة السيرة يعني التدقيق فيها والوصول إلى الحقائق التاريخية وما هو الصحيح من سيرته صلى الله عليه وآله وسلم.

^١ سورة النازعات، الآية: ٢٧.

ولعل أسباب النزول هي حلقات ومحطات من تلك السيرة والوقائع التاريخية، لا بد من معرفتها بدقة بعيداً عن الخلفيات المسبقة.

الدّس في أسباب النزول

لقد تعرّضت مناسبات النزول كما تعرّض التاريخ ككل للدسّ والتشويه، وذلك لأغراض عديدة، منها ما كان لأغراض سياسية تهدف إلى تزييف الواقع لصالح الحكام، ولا شك أن نزول آية في شخص معيّن يعني الشيء الكثير في هذا المجال.

ومن تلك الأغراض ما يرتبط بتحريف معاني القرآن لتتناسب مع الأهواء والمذاهب. وهذا يجعل من دراسة أسباب النزول مهمة شاقّة، تحتاج إلى تحقيق وتدقيق في سند الروايات، الناقلة لأسباب النزول، ولا بدّ من تطابق ما ورد في أسباب النزول مع العقيدة الثابتة، ومع سلسلة الحوادث والسير التاريخي حتّى تبدو منسجمة تماماً مع بقية المقاطع.

إسقاطها عن الاعتبار

ونحن في مقام هذا الدسّ الكبير في الروايات، ولا سيما روايات أسباب النزول، نحتاج إلى تطبيق قواعد نقد النصوص الروائية.

فأحياناً يُدعى نزول آية في شخص، وبعد التدقيق يتبيّن أنّ نزول الآية حصل في زمان تأخّر عن ذلك الشخص.

وقد يروي سبب النزول من لم يكن موجوداً حين نزول الآيات، كما يحصل مثلاً فيما يروي عن ابن عمر أو ابن عباس أو عائشة في مناسبات النزول في السور المكية الأولى، ليس على نحو الرواية عن الغير والحكاية عنهم، بل على نحو الحضور والمشاركة في الحديث.

كما أنّ سياق الكثير مما روي في أسباب النزول يظهر منه أنّ الراوي لا ينقل المناسبة رواية ومشافهة، وإنّما ينقل قصّة تاريخية ثمّ يطبق الآيات عليها ويربطها بما ربطاً، وهذا إن كان يعدّ حكاية لأسباب النزول فهو مجرد اجتهاد من الراوي.

وعدد كبير من أسباب النزول التي تروى متناقضة فيما بينها، وأحياناً قد تروى عن راوٍ واحد أسباب نزول في آية واحدة متناقضة أو لا يمكن الجمع بينها.

ولقد ساهمت قضية المنع من كتابة الحديث في عصر الخليفة الأول في خلط الأوراق وتضيق الحقائق، وفتحت الباب واسعاً أمام النقل بالمعنى الذي قد يفقد الحديث الكثير من الدقة والخصوصيات، ومهدت الطريق لمن يريد الدسّ والوضع والكذب، - وخاصة أولئك المتربصون بالإسلام الدوائر من أهل الكتاب -، ولقد نال أسباب النزول قسطاً وافراً من تلك المدسوسات والموضوعات والإسرائيليات.

هذه الأمور دعت الكثير من محققينا إلى التقليل من أهميّة أسباب النزول بل إسقاطها عن الاعتبار.

المنهج اللازم إتباعه في تقييم أسباب النزول

مما تقدّم يتبيّن أنّه لا بدّ من اتباع المنهج التالي قبل الأخذ بأيّ نصّ متضمّن لسبب نزول آية قرآنية:

أولاً: التأكّد من عدم معارضة ما ورد في سبب النزول مع العقيدة الثابتة والصحيحة.

ثانياً: إنّ أسباب النزول هي روايات تحكي لنا شأن النزول الذي يساعد على فهم القرآن وتحديد المراد من آياته. وعليه فلا بدّ من عرض الأخبار المتضمّنة لأسباب النزول أيضاً على القرآن قبل كلّ شيء، وإسقاط ما كان منها مخالفاً للقرآن.

والمخالفة هنا لا بدّ أن تكون لما هو بيّن واضح ومعروف الدلالة. فلا يرد إشكال الدور الذي قد يدّعى.

ثالثاً: يجري التحقيق في أسانيدھا لإثبات صحّتها وعدم نقلها عن الوضّاعين والضعفاء، وإلا فيجري فيها أحكام التعارض.

رابعاً: إنّ القرآن الكريم هو الأصل الذي ينبغي عرض الأحاديث عليه لتمييز الموافق من المخالف، وعلى أساسه نقبل الحديث أو نرفضه.

خامساً: التأكّد من صحّة المضمون تاريخياً وإمكانه، وذلك بتوافقه مع المسار التاريخي للأحداث، ومع زمان نزول الآية.

سادساً: التأكّد من عدم معارضة رواية سبب النزول مع غيرها من الروايات.

فما يسلم عندنا من روايات أسباب النزول نستفيد منه في تفسير الآيات، ولكن لاحظ العلماء أنّه بعد إجراء هذه الموازين لم يسلم عندنا منها إلا القليل، ولأجل هذا لم يعلّق عليها السيّد الطباطبائي رضوان الله عليه الكثير من الأهمية، واعتبر أنّ المعارف القرآنية العالمية الدائمة لا تحتاج أبداً إلى أسباب النزول^١.

الاستغناء عن أسباب النزول

وفي الحقيقة إنّ الثروة التفسيرية التي وصلتنا عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم أفضل الصلاة والسلام أعانت كثيراً المفسّر الشيعي، في حين أنّ المفسّر المخالف حُرّم منها، فلم يعد أمامه بدّ من التشبّث بأسباب النزول، ونحن لا ننكر العلاقة الوثيقة بين التفسير وأسباب النزول، إلاّ أنّ ما يروى فيه من نصوص اعتمدها المفسّرون الكثير منها ساقط، إمّا سنداً أو لمخالفته للقرآن والعقائد الثابتة. وقد تعرّضت أحاديث أسباب النزول للكثير من التشويه والخلط لأهداف وأسباب عديدة.

^١ العلامة الطباطبائي، القرآن في الإسلام، ص ١٥٣ و ١٥٤.

المورد لا يخصُّ الوارد

ومهما يكن فإنَّ أسباب النزول ليست في حقيقتها وواقعها سوى مناسبات استدعت نزول الآية في وقتٍ ما وظرفٍ خاصٍّ، وفي الغالب فإنَّ الآيات النازلة في مناسبات خاصَّة كانت تؤسِّس لقاعدة عامَّة أو لحكم كليّ أو يبيِّن حقيقة علمية، وهذا يعني أنَّ النازل من القرآن في تلك المناسبات لا يختصُّ بذلك المورد أو تلك المناسبة، وعليه فإنَّ شأن النزول لا يلعب دوراً في تخصيص ما نزل عامّاً، وتقييد ما نزل مطلقاً.

فالقرآن الكريم وإن نزل في زمان محدّد لكنَّ الخطاب القرآني لا يختصُّ بجيل النزول، وهو يخاطب البشرية عامَّة والأجيال كلّها.

فآية الظهار مثلاً نزلت بمناسبة مظاهرة أوس بن الصامت لزوجته خولة بنت ثعلبة كما في رواية، أو في غيرها كما في رواية أخرى، إلاَّ أنَّ حكم الظهار الذي تضمّنته الآية لا يختصُّ بهما، ولكنه يجري في كلّ حالة مشابهة إلى يوم القيامة.

ومثلها كلٌّ من آية السرقة وآية الزنا وآية القذف والحجاب واللعان....

وفي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: "إنَّ القرآن حيّ لا يموت، وإنَّ الآية حيّة لا تموت فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام ماتوا ماتت الآية لمات القرآن ولكن هي جارية في الباقيين كما جرت في الماضين"^١.

وروي عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام: "إنَّ القرآن حيّ لم يمت وإنه يجري كما يجري الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرا كما يجري على أولنا"^٢.

^١ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣٥، ص ٤٠٤.

^٢ المصدر نفسه، ج ٣٥، ص ٤٠٤.

وقد اشتهر بين الفقهاء قولهم إنّ المورد لا يخصّص الوارد، وهم يريدون بذلك المعنى المتقدّم ذكره.

التطبيق والجري

كثيراً ما يوردون الآيات القرآنية بعد ذكر الحوادث التاريخية لانطباقها عليها، دون دعوى نزولها في شأنها. فيأتي من لا دقة له في النقل فيتحيل نزولها في تلك الواقعة فينقل ذلك.

وأحياناً يريد التطبيق على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نفسه أو على لسان بعض الأئمة عليهم السلام، وهذا ينسجم تماماً مع ما قدّمنا من كون الآية تبقى على عمومها وإن نزلت في مناسبة خاصة، وهي تقبل الانطباق على كلّ مورد يتناوله عمومها وإن حصل في زمان متأخر عن زمان نزول الآية.

بل ربما ورد تفسير آية لفظ عامّ بمصداق معيّن أو واقع خارجي خاصّ، وهو أيضاً كثير، ومع ذلك فهو لا يعني مطلقاً تخصيص الآية وإلغاء عمومها، وإنما هو من باب التطبيق والجري. وإلى هذا الأمر يشير باستمرار العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان، وهو من التفسير بذكر المصداق الخارجي أو الإشارة إلى أحد الموارد وأنها مقصودة في الآية، لا أنها تمام المقصود.

النتيجة: نظراً لفقدان أكثر ما يروى في أسباب النزول للسند المعتبر أو غيره من شروط القبول فلا يمكن الاعتماد عليها، وبذلك تقلّ أهمية دراسة أسباب النزول.

ومع ذلك فهي لا تخصّص العامّ ولا تقيّد المطلق، فتسميتها بمناسبات النزول أو شأن النزول أولى من تسميتها بالأسباب.

وقد بالغ أهل السنّة بالاهتمام بأسباب النزول وأعطوها دوراً كبيراً في التفسير رغم اضطراب أسانيدّها. بينما أثرى التراث التفسيري عند الشيعة ما ورد في المأثور عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام.

نماذج مدسوسة في أسباب النزول

١- قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^١.

روى البخاري أنّها نزلت في أبي طالب عندما حضرته الوفاة^٢.

وهو غير صحيح لكون السورة مدنيّة إجماعاً.

وهو مبني على مذهبهم من وفاة أبي طالب رضي الله عنه على الكفر وقد ثبت عندنا أنّه مات على الإيمان.

وقد روي عندهم رواية أخرى في أنّها نزلت في استغفار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لوالدته^٣.

٢- قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾^٤.

رووا في الصحيحين^٥ أنّها نزلت لما سأله اليهودي عن الروح، ويفترض أن يكون السؤال في المدينة لأنّه هناك جاور اليهود وجرى له معهم الكثير من المناظرات، بينما السورة مكية بالإجماع، فالسؤال إذن ينبغي أن يكون من قبل المشركين في مكة، ولا مانع أن يكون بتوجيه من اليهود.

٣- قوله تعالى: ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾^٦.

^١ سورة التوبة، الآية: ١١٣.

^٢ الواحدي، أسباب النزول، ص ١٨٢. والبخاري كتاب الجنائز باب ٨١، ومناقب الأنصار باب ٤٠.

^٣ الواحدي، أسباب النزول، ١٨٣.

^٤ سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

^٥ صحيح البخاري، كتاب الاعتصام باب ٨٣ وكتاب العلم باب ٤٧.

^٦ سورة النساء، الآية: ٤٣.

رووا في سبب نزولها^١ أن جماعة من كبار الصحابة كانوا قد دعاهم رجل إلى طعام فأكلوا وشربوا فلما ثملوا وجاء وقت الصلاة قدّموا أحدهم ليصلّي بهم فقرأ: "أعبد ما تعبدون، وأنتم عابدون ما أعبد" فنزلت الآية. وقد ذكر بعضهم أن صاحب الدعوة هو عبد الرحمن بن عوف، وإن من بينهم علي عليه السلام، وأن الذي تقدّم للصلاة هو علي أو عبد الرحمن، وهو لا يصحّ حتى مع القول بأن القصة قبل تحريم الخمر، لأنّ علياً عليه السلام لم يعاقرها أبداً، ولأنّ مقتضى العصمة عدم إمكانية ذلك وعدم إمكانية خطأ القراءة عليه خاصة في مثل هذه المواضع التي لا يمكن أن تبرز بعدم تحريم الخمر، بالإضافة إلى أن النهي عن الخمر جاء في سورة الأعراف وهي مكية. فالقصة من وضع الكذّابين زمن الأمويين لإرضاء أمرائهم الحاقدين على الإمام علي عليه السلام وقد فسّر في روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام بأنه سكر النوم^٢.

^١ راجع: الزمخشري، تفسير الكشاف، ج ١، ص ٥١٣.

^٢ الشيخ الكليني، الكافي، ج ٣، ص ٣٧١.

أسئلة حول الدرس

أجب عن الأسئلة التالية؟

- ١- لماذا كانت لأسباب النزول أهمية خاصة في فهم الآيات؟
- ٢- ما هي الأسباب التي جعلت المحققين يقللون من أهمية أسباب النزول ويسقطونها عن الاعتبار؟
- ٣- لماذا لا تعتبر مشكلة عدم التثبت من أسباب النزول سداً منيعاً بوجه المفسر الشيعي، بينما هي كذلك بالنسبة للمفسر السني؟
- ٤- هل يختص القرآن بالمناسبة التي نزل فيها بحيث يكون الخطاب القرآني في زمان محدد مختصاً بذلك الجيل المعاصر؟
- ٥- أعط نموذجاً من النماذج المدسوسة في أسباب النزول؟

أجب بـ ✓ أو ✗:

- ١- القرينة المقاليّة تكون من نفس المعنى، فيذكر المتكلم في كلامه قرينةً معنويّةً توصلُ إلى المعنى الذي يريد.
- ٢- القرائن الحالية تكون مثل الإشارات والحركات وحال المخاطب والواقع الحاصل والظرف المحيط بالمتكلم أو المخاطب.
- ٣- نعرف أن التاريخ تعرّض ككل للدرس والتشويه، إلا أن مناسبات النزول وأسبابه لم يمسه التشويه والدرس.
- ٤- التطبيق والجري هو اصطلاح يعني أنّ النازل من القرآن في تلك المناسبات لا يختصّ بذلك المورد أو تلك المناسبة.
- ٥- إن اصطلاح (المورد لا يخصص الوارد) يعني أن الآية تقبل الانطباق على كلّ مورد يتناوله عمومها وإن حصل في زمان متأخر عن زمان نزول الآية.

املاً الفراغ بالكلمة المناسبة

إخفاءها - أسباب النزول - البيئات الحاكمة - الروايات - الحوادث التاريخية

ليتبصّر الباحث المتأمل أن ما ذكره من أسباب النزول كلها أو جلها نظرية بمعنى أنهم يروون غالباً..... ثم يشفعونها بما يقبل الانطباق عليها من الآيات الكريمة فيعدونها..... وربما أدى ذلك إلى تجزئة آية واحدة أو آيات ذات سياق واحد ثم نسبة كل جزء إلى تنزيل واحد مستقل وإن أوجب ذلك اختلال نظم الآيات وبطلان سياقها وهذا أحد أسباب الوهن في نوع..... الواردة في أسباب النزول. وأضف إلى ذلك ما ذكرناه في أول

هذا البحث أنّ لاختلاف المذاهب تأثيراً في لحن هذه الروايات وسوقها إلى ما يوجه به المذاهب الخاصة.

على أن للأجواء السياسية و..... في كل زمان أثراً قوياً في الحقائق من حيث..... أو إهامها فيجب على الباحث المتأمل أن لا يهمل أمر هذه الأسباب الدخيلة في فهم الحقائق والله الهادي".

السيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره،

تفسير الميزان، ج ٥، ص ٣٧٠.

الدرس العاشر: النسخ في القرآن

أهداف الدرس:

- ١- أن يتعرّف الطالب إلى مصطلح النسخ في علوم القرآن.
- ٢- أن يميّز الحكمة من النسخ.
- ٣- أن يفرّق بين النسخ والتخصيص.

تمهيد

يعتبر بحث النسخ في القرآن الكريم من أهم أبحاث علوم القرآن قديماً وحديثاً، وهو مورد نقاش وأخذ ورد بين العلماء، وقد انتقل هذا البحث من هذا العلم ودخل في الأبحاث الأصولية عند السنة والشيعة، لكن تختلف الجهة التي يتعرض لها هناك، من هنا كان من الضروري أن نتناول هذا البحث بكل جوانبه وتفصيله، وبيان النسخ بالمعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي أيضاً، ومن ثم التركيز على محل النزاع فيه، وبعد ذلك نذكر الفائدة العملية لهذا البحث، وما يترتب عليه من آثار ونتائج، إن شاء الله تعالى.

تعريف النسخ

- ١- المعنى اللغوي: استعمل النسخ في اللغة بمعنى الإزالة، فقالوا: نسخت الشمس الظل، أي أزالته.
- ٢- المعنى الاصطلاحي: يطلق النسخ في الشريعة على رفع الحكم الشرعي الذي كان ثابتاً في الشريعة بحيث إنه لولا النسخ لاستمر بمقتضى دليله. فهو إذاً رفع تشريع سابق بتشريع لاحق.

إنَّ الأحكام الشرعية بعضها قد يشرع بصورة مؤقتة، أي له أمد ينتهي الحكم بانتهائه، وبعضها الآخر قد يشرع دون أن يكون له أمد وإنما هو حكم مستمر وباقي.

والقسم الأول تارة يبيّن أنه مؤقت في لسان دليله بحيث يُعلم أنّ هذا الحكم مؤقت منذ البداية.

وأخرى لا يبيّن لنا في لسان دليله أنه مؤقت بحيث يكون ظاهر الدليل ولو من خلال إطلاقه أنه حكم ثابت ومستمر.

هذا النوع الأخير من الأحكام هو موضوع بحثنا، فإنه عند انتهاء أمد الحكم يرد من قبل الشريعة بيان جديد لحكم جديد يلغي الأول وينسخه، فيسمّى الأول حكماً منسوخاً والجديد ناسخاً.

كما أنّ دليل الحكم الجديد ناسخ للدليل القديم، لأنّه مزيل له أو لتأثيره ومضمونه.

يقول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا...﴾^١.

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^٢، ومن المعلوم أنّ هاتين الآيتين تثبتان إمكانية النسخ.

وعليه: فإنّ ارتفاع الحكم أو التشريع المؤقت صراحة في لسان الدليل عند انتهاء أمده لا يطلق عليه اسم النسخ. كما أنّ ارتفاع الحكم الأولي عند مصادفة الحرج والاضطرار الذي هو موضوع لحكم ثانوي لا يطلق عليه اسم النسخ أيضاً، كما في ارتفاع حرمة أكل الميتة عند اضطرار الإنسان له، أو الصلاة من جلوس أو بالإيماء عند عدم القدرة على الصلاة الاختيارية، وأمثال ذلك.

^١ سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

^٢ سورة النحل، الآية: ١٠١.

حكمة النسخ

في القوانين البشرية الوضعية كثيراً ما تصدر المراسيم والمقررات فتغيّر الدستور السابق الثابت أو القانون، وعادة يكون الداعي إلى ذلك أحد أمور:

١- اكتشاف عدم صلاحية القانون أو الدستور السابق ووجود ثغرات فيه تحتاج إلى علاج جديد.
وفيه: إنّ هذا لا يتصوّر مطلقاً في النسخ الشرعي، لأنه تعالى منزه عن الجهل وعن العبث، بل هو لا يضع شرعة ولا حكماً إلا حسب مقتضى المصالح التي هو أعلم بها، ولا تخفى عليه خافية.

٢- تتغيّر وجوه المصلحة والمفسدة نتيجة تحدّد بعض الظروف أو الأوضاع التي تجعل القانون السابق لا يلائم المستجدّات، مما يلزم تغيير القانون بما يتناسب مع الوضع الحالي، ومع ذلك فإن واضعي القانون السابق لم يكن في علمهم أن المستجدّات ستحصل لتعالج منذ البداية في القانون السابق.

وفيه: إن الله تعالى عالم بالأشياء قبل حدوثها، فهو حسب الفرض عالم بالمتغيّرات والمستجدّات، فكان المفروض أن تؤخذ بنظر الاعتبار عند التشريع منذ البدء.

هذان الأمران دفعا بعض المشكّكين إلى إنكار إمكانية النسخ.

أين مصلحة الحكم؟

ولكنّ الإشكال يرتفع إذا أدركنا أين تكمن المصلحة المقصودة في ملك الحكم:

١- أحياناً لا تكون قائمة في نفس الفعل، بمعنى أن الغاية والحكمة من الأمر والنهي قد تكون لمحجّد الامتحان والاختبار، وهذا النوع من الأحكام لا مانع من وضعه

ورفعه في أي وقت يترتب على الأمر مصلحة الامتحان والاختبار، بل أحياناً تكون مصلحة الامتحان أقوى من المفسدة المترتبة على الفعل، أو أقوى من مصلحة فعل آخر يزاحمه فيترك لصالح هذا الحكم.

٢- وأحياناً تكون المصلحة في نفس الفعل والمفسدة كذلك، إلا أنه يمكن أن تتغير بحسب اختلاف الأزمان، فيكون هناك زمان ذا مصلحة تنتفي في زمان آخر، وإذا كان التغير مجهولاً عند البشر فهو معلوم عند الله تعالى بلا شك، ومع ذلك لا يلزم أن يكون التشريع منذ البداية مراعيّاً للتغيرات، إذا كان في قصد المشرع أن ينسخ الحكم عند تبدل المصلحة وتغير الأحوال.

وهناك أمور أخرى قد تكون أحياناً لها مدخلية بتحقق المصلحة والمفسدة، كالتدرج في التشريع الذي له مصلحة خاصة تكون أحياناً أهم من المفسدة الحاصلة بترك الواقع.

ومثال الأول: القبلة.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾^١.

ومنه يظهر أن القبلة الأولى لم تكن إلا للامتحان.

ومثلها أيضاً آية النجوى. يقول تعالى: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُؤَاكُمُ صَدَقَاتٍ﴾^٢.

فقد ورد أنه صلى الله عليه وآله وسلم بعد نزول الآية فرض على كل مسلم صدقة درهم واحد عند

^١ سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

^٢ سورة المجادلة، الآية: ١٢.

كل مسألة فرضاً على الأغنياء دون الفقراء، وقال المفسرون لم يعمل بهذه الآية إلا الإمام علي عليه السلام رغم أنه كان من الفقراء.

ثم نسخت الآية بعد تحقق الاختبار المطلوب بالآية اللاحقة.

ومثال الثاني: عدد المقاتلين.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾^١.

ثم قال: ﴿الآن حَقَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^٢.

قال الإمام الصادق عليه السلام: "ففسخ الرجلان العشرة"^٣.

ومثال الأحكام المؤقتة منذ البداية قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَأْتِيَنَّهَا فَاحِشَةٌ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾^٤.

فقد جعل الله لمن السبيل في آية الجلد وفي حكم الرجم وهذا مبني على أن المراد من الفاحشة الزنا، وإلا فلو كان المراد الأعم منه ومما يقبح ويفحش فالحكم الأول باقٍ والثاني مجرد تخصيص له.

وأمثلة الأحكام التي فرضت لأغراض تأديبية وفي سياق المعاقبة كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^٥.

^١ سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

^٢ سورة الأنفال، الآية: ٦٦.

^٣ الشيخ الكليني، الكافي، ج ٥، ص ٦٩.

^٤ سورة النساء، الآية: ١٥.

^٥ سورة النحل، الآية: ١٢٤.

﴿فَبَطَّلْنَا مِنَ الدِّينِ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾^١.

إلى هنا تبين معنا إمكانية النسخ وعدم منافاته لحكمة المشرع وعلمه المطلق. وتبين معنا أيضاً أنه قد تقتضي الحكمة إخفاء التوقيت وإطلاق لسان الدليل، لينسخ الحكم عندما يتحقق المقتضي لذلك.

الفرق بين النسخ والتخصيص

الأحكام الشرعية يمكن أن تُبين في بداية الأمر بلفظ عام في دليل، ثم يرد في دليل آخر تخصيص لتلك الأحكام. كما إذا ورد دليل يقول: أطعم الفقراء أو أطعم كل فقير، ثم جاء دليل آخر يقول لا تطعم الفسّاق من الفقراء، وحكمة التدرج في التشريع أو في بيان الأحكام هي التي قد تقتضي تأجيل البيان إلى وقت الحاجة.

وربما كان الدليل الأول في مقام بيان أصل التشريع دون تفصيلاته، بينما يترك أمر التفاصيل إلى أدلة لاحقة في السنة النبوية الشريفة.

والنتيجة:

إن التخصيص هو إخراج جزء من الموضوع أو بعض أفراد موضوع الحكم العام، وأما النسخ فهو إلغاء الحكم الذي كان ثابتاً في زمان سابق إلغاؤه في الزمان اللاحق.

وقوع النسخ في القرآن

هناك آيات كثيرة جداً ادّعي أنها منسوخة بآيات أخرى، لكن التدقيق فيها يكشف عن عدم دخولها تحت النسخ الاصطلاحي، إما باعتبار اختلاف الموضوع أو باعتبار الانسجام التام بينها وعدم التناقض، أو لكونها تدخل في باب التخصيص، أو لأن

^١ سورة النساء، الآية: ١٦٠.

الحكم الأول مقيّد بالزمان والأمد المحدود من البداية، أو لغير ذلك من الاعتبارات التي تخرجها من باب النسخ.

وقد أورد السيد أبو القاسم الخوئي ٣٦ آية من الآيات التي ادّعي أنها منسوخة وبعد البحث والتدقيق فيها خرج أغلبها من باب النسخ لأحد الاعتبارات المتقدمة^١.

ومهما يكن فإن نسخ الآية لغيرها ينبغي أن يتوقّف فيه أمور:

- ١- وحدة الموضوع في الآيتين.
- ٢- التنافي في الحكم ليكون أحدهما رافعاً للآخر.
- ٣- عدم كون الآية المنسوخة مقيّدة بأمد خاص، أو مشروطة بظرف معيّن.

أما نسخ القرآن بالسنة النبوية الشريفة فلو فرضنا إمكان ذلك، لوجب أن يكون الناسخ (السنة) متواتراً قطعياً. فالقرآن لا ينسخ بخبر الواحد، كما اتفق العلماء.

ولكن بما أن السنة القطعية الناسخة للقرآن غير موجودة فينتفي هذا الفرض من أساسه.

نسخ التلاوة

ما تحدّثنا عنه من النسخ كان يتناول نسخ الحكم الوارد في آية قرآنية مع بقاء الآية واتصافها بالقرآنية، وهو المقصود عادة من كلامهم.

لكن ادّعي أن آيات من القرآن نسخت تلاوتها أي أزيلت من القرآن فهي لا تتلى وربما بقي حكمها وربما لم يبق. وهذه الدعوى التزم بها أهل السنة نتيجة روايات عديدة رويت من طرقهم تتحدّث عن آيات من القرآن كانت تتلى ولكنهم لا يجدونها في القرآن وكان لا بد لهم أمام هذه الروايات من التزام أحد أمرين:

^١ السيد الخوئي، البيان في تفسير القرآن، ٢٨٧-٣٨١.

الأول: سقوط تلك الروايات عن الاعتبار وإهمالها والحكم عليها بالكذب.
الثاني: الالتزام بطرؤ النقص على القرآن وذهاب جزء منه انسجاماً مع مدلول تلك النصوص.

وكلا الأمرين كان محرراً لهم:

فالأول: يقتضي التنازل عن اعتبار روايات وردت في كتب حكموا عليها بالصحة ونالت درجة كبيرة من القدسية عندهم حتى عدوا لقراءتها من الفضل والاستحباب والبركة ما يأتي بعد القرآن مباشرة.

والثاني: لا يمكن الالتزام به لأنه يخالف الضرورة التاريخية وتواتر القرآن الكريم وإجماع المسلمين على سلامته من التحريف.

ولأجل التخلص من هذا المأزق ابتكروا مقولة "نسخ التلاوة"، ومفادها أن هذه الآيات كانت قرآناً ولكن الله سبحانه وتعالى نسخها فخرجت بذلك عن صفة القرآنية مع بقاء حكمها.

والحقيقة أنّ هذه الدعوى لا دليل عليها أصلاً، ولم يوردوا ما يدل على ذلك إلا تلك الروايات التي مؤداها التحريف المرفوض.

ولأجل ذلك رفض أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام نسخ التلاوة رفضاً باتاً ورفضوا الروايات الدالة على سقوط شيء من آيات القرآن وعدوها من روايات التحريف المرفوضة كما تقدم الإشارة إليه، هذا بقطع النظر عن رواياتها وناقليها.

والعجيب عدم الالتفات إلى أن ما يدعى أنه كان من القرآن ونسخت تلاوته يحمل معه دليل سقوطه وكذبه نظراً لعدم توقّر النظم القرآني والبلاغة القرآنية في شيء منه.

أسئلة حول الدرس

أجب عن الأسئلة التالية؟

- ١- ما هو المعنى المقصود من النسخ في القرآن؟
- ٢- ألا يلزم من النسخ نسبة الجهل إلى الله تعالى؟ أوضح ذلك من خلال المثال؟
- ٣- كيف تفرق بين النسخ والتخصيص؟
- ٤- هل يوجد في القرآن ناسخاً ومنسوخاً، وهل يُنسخ القرآن بالسنة النبوية الشريفة؟
- ٥- كيف تردّ على دعوى أن في القرآن آيات نسخت تلاوتها؟

أجب بـ ✓ أو ✗:

- ١- النسخ هو رفع تشريع لاحق بتشريع سابق.
- ٢- يسمّى الحكم الأول حكماً منسوخاً والجديد ناسخاً.
- ٣- نسخ التلاوة يعني أنه إذا أزيلت آية من القرآن فهي لا تتلى وربما بقي حكمها وربما لم يبق.
- ٤- لقد رفض أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام نسخ التلاوة رفضاً باتاً.
- ٥- إن تغيير القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام لم يكن من النسخ بل هو حكم جديد كلياً.

املاً الفراغ بالكلمة المناسبة

بالنسخ - أحكامها - آيات سابقة - مصلحة زمنية محدودة - بالمنسوخ

إنّ آيات الأحكام الواردة في القرآن آياتٌ احتلتْ..... مكانَ أحكام كانت موضوعة في..... ، فأُنهت مفعولها ولم تعد تلك الأحكام معمولاً بها..... وتسمّى الآيات السابقة..... والآيات اللاحقة..... والنسخ الذي يدور على ألسنتنا حقيقته هي: وضع قانون لمصلحة ما والعمل به ثم ظهور الخطأ في ذلك وإلغاؤه ووضع قانون جديد مكانه. لكن لا يمكن نسبة مثل هذا النسخ الدال على الجهل، والخطأ إلى الله تعالى المنزه عن كل جهل وخطأ، ولا يوجد هكذا نسخ في الآيات الكريمة الخالية عن وجود أي اختلاف بينها. بل النسخ في القرآن معناه: انتهاء زمن اعتبار الحكم المنسوخ. ونعني بهذا أن للحكم الأول كانت..... وأثر مؤقّت خاص تعلن الآية الناسخة انتهاء ذلك الزمن المحدود وزوال الأثر. ونظراً إلى أن الآيات نزلت في مناسبات طي ثلاث وعشرين سنة من السهولة بمكان تصوّر اشتغالها على هكذا أحكام".

السيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره

القرآن في الإسلام، ص ٥٠.

الدّرس الحادي عشر: المحكم والمتشابه في القرآن

اهداف الدرس:

- ١- أن يتعرّف الطالب إلى معنى المحكم والمتشابه.
- ٢- أن يدرك الحكمة من وجود المتشابه في القرآن.
- ٣- أن يتعرّف إلى معنى التأويل.

تمهيد

من أهمّ الأبحاث العلمية في علوم القرآن الكريم هو بحث المحكم والمتشابه، وهو بحث قديم يرجع للزمن الأوّل بعد النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، في زمن التابعين من الأصحاب، حيث نجد في تعابير أمير المؤمنين عليه السلام العبارات الصريحة الدالة على هذا البحث، وهو من الأبحاث التي لا يستغني عنها فقيه من الفقهاء، لأنه لا يستطيع أن يقدم أي فتوى من الفتاوى دون الرجوع إلى القرآن الكريم لأنه المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامي، والرجوع إلى القرآن يحتاج إلى التمييز بين المحكم والمتشابه، وهذا البحث الذي بين أيدينا معقود لبيان المراد من المحكم والمتشابه، والمراد من التأويل، وكيفية التعاطي مع المتشابهات، ولماذا كان في القرآن الكريم بعض آيات متشابهات، ولم يكن كله من المحكمات؟

معنى المحكم:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^١.

^١ سورة آل عمران، الآية: ٧.

الإحكام في اللغة: يعني الإتقان، ويوصف به الكلام إذا كانت دلالته على المراد واضحة، بحيث لا تحتمل وجوهاً أخرى من المعاني، ومن هنا كان المحكم هو الذي لا تعزیه شبهة من حيث الدلالة والمعنى، ولا يتعدّد فيه احتمال المعنى.

وأما المتشابه: فهو مأخوذ من تشابه الوجوه أي تماثل بعضها مع بعض آخر، بحيث يحتمل وجوهاً متعدّدة من المعاني. ومن تمّ كان المتشابه ما فيه شيء من الخفاء، فكان ظاهره لا ينبئ بنفسه عن المراد، ما لم يرجع إلى المحكم من القرآن الكريم، أو القرائن والدلالات الواردة في الروايات الواردة عن أهل بيت النبوة عليهم السلام الكاشفة عن الدلالة الصحيحة أو المعنى المراد.

إذن فالمتشابه بحاجة إلى التأويل والإرشاد إلى الوجه المتعيّن من الوجوه المحتملة، وإذا أُرجمت المتشابهات إلى المحكمات ارتفعت جميع جوانب الإبهام والتشابه أو كثير منها.

والآية الشريفة السابقة الذكر تتحدّث عن مرضى القلوب وطلّاب التحريف المعنوي، الذين يريدون استخدام القرآن الكريم وسيلة للوصول إلى مآرهم الخبيثة، فيلجؤون إلى المتشابهات، وأما التمسك بالمتشابهات بالطريقة الصحيحة وعلى أساس إرجاعها إلى المحكمات التي تفسّرها، أو الرجوع إلى الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويلها، فإنّ ذلك جائز لا ريب فيه.

حكمة المتشابه في القرآن

من المعلوم أن القرآن كتاب هداية للناس، وهو الكتاب السماوي الخاتم الذي لا كتاب بعده للناس، فينبغي أن يكون خالياً من التحريف والنقص وأي شيء يؤثّر سلباً على الهدف الذي من أجله نزل القرآن، والمتشابه قد يوقع الإنسان في الالتباس والشبهات، وذلك لعدم وضوح معنى المتشابه، ولتعدّد الاحتمالات فيه، فقد يسأل سائل أنّه ما الحكمة في وجود المتشابه في القرآن؟

الجواب: إنّ القرآن الكريم تصدّى لبيان أمور كثيرة غير محسوسة، ولا يمكن تصويرها ولا التعبير عنها بالطريقة المتعارفة، إلا إذا استعين بالمجازات والاستعارات والكنائيات، وتقريب تلك المعاني بتشبيهها بالمحسوسات، وذلك لأمرين:

١- ضيق العبارات، وعجز الألفاظ.

٢- عجز الأذهان البشرية الساذجة عن إدراك تلك المعاني إما لدقتها أو لخفائها عن غير أهلها.

وعلى سبيل المثال: كيف نعبر لشخص لم يسافر خارج بلده ولم ير البلدان الأخرى عن بعض المناظر الموجودة في البلاد الأخرى؟ ألا نضطر للاستفادة من التشبيه والتمثيل له ببعض الأمور الموجودة في بلده؟ وإذا أردنا أن نصف للطبيب بعض الآلام التي نشعر بها، ألا نشبه له الألم بأمر محسوسة؟ والله سبحانه وتعالى عندما يريد أن يخبرنا مثلاً عن بعض ملذات الجنة ألا يشبهها لنا بما تدركه عقولنا من تفاح ورومان... ولكن تفاح لا كتفاح الدنيا ورومان لا كرمان الدنيا وهكذا سائر النعم في الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكذلك الأمر بالنسبة للعذاب فهو ليس كعذاب الدنيا أبداً، ولكن يشبه لنا ببعض أنواع العذاب الدنيوي كي نستطيع فهم المعنى على قدر المستوى البشري.

ويؤكد هذا المعنى العلامة الطباطبائي حيث ذهب إلى أنّ سبب وقوع التشابه في القرآن يعود إلى كون القرآن الكريم يخضع في إلقاء معارفه العالية لألفاظ وأساليب دراجة لم تكن موضوعة سوى لمعان محسوسة أو قريبة منها، ومن ثمّ لم تكن تفي بتمام المقصود، إلا بارتكاب الكنائيات والمجازات فوقع التشابه فيها وخفي وجه المطلوب إلا على أولئك الذين نفذت بصيرتهم وكانوا على مستوى رفيع من العلم^١.

^١ العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٣، ص٦٢-٥٨ باختصار.

وفي هذا المجال يقول الشيخ محمد عبده:

"إنّ الأنبياء بعثوا إلى جميع أصناف الناس من دانٍ وشريف وعالم وجاهل وذكي وبليد، وكان من المعاني ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة يفهمها كل أحد، ففيها من المعاني العالية والحكم الدقيقة ما يفهمه الخاصّة ولو بطريق الكناية والتعريض، ويؤمر العامّة بتفويض الأمر فيه إلى الله والوقوف عند حدّ الحكم فيكون لكلّ نصيبه على قدر استعداده".^١

كيف نتعامل مع المتشابه؟

وقصور الذهن البشري بشكل عام عن إدراك المعنى الدقيق والكامل للقرآن لا يعني ذلك أبداً خروج القرآن الكريم عن كونه كتاب هداية وبيان ونور، ولا ينافي ذلك أبداً وجوب التدبّر في آياته والغوص في أعماقه واستخراج مكنوناته، فإنّ الطريق إلى معرفة المعاني المقصودة في الآيات المتشابهة مفتوح وذلك عن طريقين:

الأول: ردّ المتشابه إلى الحكم، وتفسيره على ضوء ما هو مبين في الآيات المحكمات، فهي التي تحدّد المقصود وتبيّن المراد.

الثاني: الرجوع إلى الراسخين في العلم: وهم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وأهل بيته المعصومون عليهم السلام ورثة علمه وباب مدينته وخزّان وحيه.

وقد ورد في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: "إنما يعرف القرآن من خوطب به".^٢

فالمتشابه، ليس متشابهاً بقول مطلق، لأن تشابهه مرتفع عند أهله، وقد ورد في الأثر عن الإمام الصادق عليه السلام: "الحكم ما يعمل به والمتشابه ما اشتبه على جاهله".^٣

^١ محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج٣، ص١٧٠.

^٢ الشيخ الكليني، الكافي، ج٨، ص٣١١.

^٣ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٦٩، ص٩٣.

فقوله عليه السلام: "على جاهله" يدل على أنه غير متشابه عند العالم به وهم الراسخون في العلم.

وفي الرواية عن الإمام الرضا عليه السلام: "من ردّ متشابه القرآن إلى محكمه هدي إلى صراط مستقيم"^١.

ومن هذه النصوص نستفيد أن الآيات المتشابهة هي الآيات التي لا تستقل في مدلولها بل لا بد من ردها إلى الآيات المحكمة.

يقول العلامة الطباطبائي قدس سره: "وعليه ليس في القرآن آية لا نتمكن من معرفة معناها، بل الآية إما محكمة بلا واسطة كالحكمات نفسها، أو محكمة مع الواسطة كالمتشابهات..."^٢.

واختصاص معرفة معاني القرآن بالراسخين في العلم لا يمنع معرفة بعض مراتب المعنى بما يتناسب مع مستوى إدراك القارئ المتدبر في القرآن، وإلا فمراتب المعنى عديدة وكثيرة تختلف عمقاً ولا يمكن إدراك مداها إلا لمن خصّ بالمنزلة العليا من الكمال البشري وهم الراسخون في العلم. وهذا لا علاقة له بالإحكام والتشابه وإنما هو يجري في كل آية من آيات الكتاب.

أهل الزيغ والمتشابهات

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾^٣. وهذه الآية الشريفة تقسم مواقف الناس في تعاملهم مع متشابه القرآن

^١ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٨٥.

^٢ العلامة الطباطبائي، القرآن في الإسلام، ص ٤٩.

^٣ سورة آل عمران، الآية: ٧.

ومحكمه إلى قسمين: قسم هم أهل الزيغ والضلال، وقسم هم الراسخون في العلم.

وأما القسم الأوّل فهم إمّا أهل الظاهر الذين يقفون عند ظاهر اللفظ دون الاهتمام بما ينتج عن ذلك من مخالفة صريحة للمحكّمات، والالتزام بما لا ينسجم مع العقائد الأساسية الثابتة بالعقل والنقل.

وأما أهل الزيغ ومرضى القلوب الذين تحدّث عنهم الآية، فهؤلاء يتعمّدون التحريف والتأويل والتصرّف في المعاني بحسب أهوائهم.

ولقد تسبّب أهل الزيغ في خلق حالة التشكيك والخفاء في الآيات المتشابهة نتيجة الخوض في الشبهات والسجلات الكلامية، وأبعدوا بذلك المعاني القرآنية عن تناول الأيدي بالنسبة للكثيرين.

ولأجل ذلك كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يوصي ابن عباس عندما بعثه إلى الخوارج للاحتجاج عليهم: "لا تخصمهم بالقرآن فإن القرآن حمّال ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً".^١

والآية الشريفة لم تنه عن الاستفادة من الآيات المتشابهة في المحاججة كما توهم بعض، وإمّا ذمّت الذين يلجؤون إلى التشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل بما يتناسب مع أغراضهم الدنيئة.

أما العمل بالمتشابه بعد ردّه إلى المحكم أو رفع تشابهه عن طريق الرجوع إلى الراسخين في العلم، فهو مما لا ريب فيه ولم ينه عنه القرآن ولا منع منه.

فالقرآن "يشهد بعضه على بعض وينطق بعضه ببعض"^٢ كما روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

^١ الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي، الوصية ٧٧.

^٢ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٢٢.

التأويل في القرآن

التأويل: مأخوذ من مادة آل إذا رجع، فكأن التأويل إرجاع اللفظ إلى معناه المراد واقعاً.

قال الخليل الفراهيدي: التأويل والتأويل: تفسير الكلام الذي تختلف معانيه ولا يصح إلاّ ببيان غير لفظه^١. وهذا هو المقصود في الآية التي تعرّضت لتأويل المتشابه.

وقد وردت مادة التأويل في القرآن الكريم ٧١ مرة، يمكن إرجاع الجميع إلى معنى واحد وهو كشف ما كان غامضاً في فعل أو لفظ أو غيب. وهذا ينسجم مع المعنى اللغوي.

وأما في لسان المفسّرين فهناك ثلاثة استعمالات للتأويل:

الأول: تأويل المتشابه وبيان الوجه فيه والمعنى المراد منه وهو مختصّ بالآيات المتشابهة.

الثاني: بمعنى التفسير سواء كان اعتماداً على مداليل الألفاظ أو غيرها من الوسائل والطرق، وهذا أعم من الاستعمال السابق.

الثالث: بيان المعاني الباطنة للقرآن الكريم، فإن القرآن على ما ورد في الأثر له ظهر وبطن، بل بطون متعدّدة.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "ليس من القرآن آية إلاّ ولها ظهر وبطن وما من حرف إلاّ وله تأويل، وما يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم"^٢.

^١ الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج ٨، ص ٣٦٩.

^٢ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ١٥٥.

وسئل الإمام الباقر عليه السلام عن هذه الرواية فقال: "ظهر وبطن هو تأويلها، منه ما قد مضى ومنه ما لم يجيء... ونحن نعلمه"^١.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن... وله ظهر وبطن ظاهره حكمة وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق"^٢

لماذا كان في القرآن آيات فيها تأويل؟

القرآن الكريم تبيان كل شيء، ولا يمكن بيان كل شيء لكل أحد، نظراً لاختلاف مستويات الناس من حيث القدرة على الإدراك.

فمن الناس من لا يدرك حتى الظاهر منه.

ومن العلماء من يقتصر على إدراك الظاهر، لأنه يعجز عن خوض غمار الباطن، ومنهم من ينكشف أمامه بعض مراتب الباطن وطبقاته.

ومنهم الراسخون في العلم الذين أوغلوا فيه وسبروا أعماقه.

وهذا الأسلوب القرآني يعدّ من وجوه الإعجاز فيه حيث يخاطب الناس كلهم على اختلاف مداركهم بكلام واحد يتضمن مستويات من العلم والحكمة والمعارف.

فالقرآن كله نور وبيان وهدى، والخفاء الحاصل من بطونه ناشيء من قصور في مداركنا وعقولنا المحدودة، وليس من قبل القرآن نفسه.

الراسخون في العلم

تشير الآية المتقدمة في مستهل الفصل إلى اختصاص معرفة التأويل بالله والراسخين في العلم. لكن الذين وضعوا علامات الوقف في القرآن الكريم أثبتوا

^١ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ١٩٧.

^٢ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ١٧.

عند لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾^١ وفقاً لازماً، ليجعلوا ما بعد لفظ الجلالة كلاماً مستأنفاً في محاولة لتخصيص معرفة تأويل المتشابه بالله عزّ وجلّ، وإغلاق باب الوصول إليه على البشر جميعاً، جموداً على المتشابه وسدّاً لباب التأويل، ولا نشكّ بأنّ الدافع الأساس لهذا الأمر هو الحسد لأهل البيت عليهم السلام الذين ورد أنهم هم الراسخون في العلم.

والحقيقة أنّ هذا العمل يفتح المجال أمام التساؤل عن فائدة إدراج الآيات المتشابهة في القرآن الكريم مع كونها لا يعلم تأويلها إلا الله، وكيف يمكن أن يكون الكتاب كل الكتاب كتاب هداية وبيان، وكيف يمكن الأمر بتدبر آياته كل آياته.

فالصحيح أنّ ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ معطوفة على "الله"، في الآية، فهم يعلمون بتعليم منه بلا شكّ تأويل المتشابه بل البطون العميقة للقرآن الكريم^٢. وليس هناك أي إشكال نحوي في جعل جملة "يقولون آمنا به" مستأنفة، فاعلمها يعود إلى الراسخين أنفسهم.

من هم الراسخون؟

يقول الإمام الباقر عليه السلام كما في الرواية: "إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الراسخين في العلم، قد علم جميع ما أنزل الله من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله"^٣.

^١ سورة آل عمران، الآية: ٧.

^٢ ليس من الأكيد أن ذلك حصل بسبب تحصيل المعرفة بالله فقط مع ذهاب بعض مفسري الشيعة إلى ذلك وأن هناك آيات أخرى تدل على علمهم بالتأويل يمكن معالجة ذلك من باب الإطلاق والتقبيد أو العام والخاص القرآني الذي استخدم بشكل كبير فيه وعدم اللجوء إلى مثل هذا التبرير.

^٣ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٨٠.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: "إن الله علّم نبيه التنزيل والتأويل فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علماً عليه السلام وعلمنا والله".^١

وأما الروايات التي تصرّح بأنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام هم الراسخون في العلم فكثيرة جداً ومستفيضة. نماذج من الآيات المتشابهات

١- قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^٢.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾^٣.

وأمثال هذه الآيات التي عبّرت بالاستواء.

ولا شك أن الاستواء على العرش بمعنى الجلوس عليه غير جائز عليه تعالى، فلا بد من حملها على معنى السيطرة والاستيلاء والقدرة، وهو معنى نستفيده من الآية الشريفة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^٤، وما ورد في كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: "... ومن قال: فيم؟ فقد ضمّنه، ومن قال: علام؟ فقد أخلى منه..."^٥.

ولكن الذين عجزوا عن التأويل توهموا عدم اطلاع أحد غير الله عليه، فقالوا كما روي عن مالك بن أنس أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^٦ كيف استوى؟ فأجاب بعد أن أطرق برأسه: كيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإني لأخاف أن تكون ضالاً...

^١ العلامة المجلسي، بحار الأنوار ج٢٦، ١٧٣.

^٢ سورة طه، الآية: ٥.

^٣ سورة الأعراف الآية: ٥٤، سورة يونس، الآية: ٣، سورة الرعد، الآية: ٢، سورة الفرقان، الآية: ٥٩.

^٤ سورة الشورى، الآية: ١١.

^٥ الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي، الخطبة الأولى.

^٦ سورة طه، الآية: ٥.

ثم أمر بالرجل فأخرج من المسجد^١.

وهذا النوع من الاستعمال المجازي معروف عند العرب، قال الشاعر:
قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق^٢

٢- قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾^٣.

فإن النظر هنا ليس نظر الجارحة ولا نظر الرؤية، وذلك لقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^٤.

والمؤسف أن الغفلة والجمود دفعا البعض إلى مخالفة صريح هذه الآية المحكمة تمسكاً بالمتشابه في الآية السابقة، فادعوا إمكان رؤية الله تعالى، مع أن النظر لا يلزم منه الرؤية، ومع ذلك يمكن حمله على النظر إلى رحمة الله تعالى وجميل وعده نظر انتظار.

٣- قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^٥.

وقوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^٦.

فلا يعقل أن يكون له سبحانه يداً أو رجلاً أو ما شابه ذلك، لأنه يستلزم الجسمية، والجسم بملاً حيزاً، وهو سبحانه وتعالى لا جسم له ولا حيز له ولا مكان، وإنما هو خالق كل شيء، تعالى الله عما يصفون علواً كبيراً.

^١ السيوطي؛ الدر المنثور، ج ٣، ٩١.

^٢ ابن منظور، لسان العرب، ج ١٤، ص ٤١٤.

^٣ سورة القيامة، الآيتان: ٢٢ - ٢٣.

^٤ سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

^٥ سورة المائدة، الآية: ٦٤.

^٦ سورة الفتح، الآية: ١٠.

أسئلة حول الدرس

أجب عن الأسئلة التالية:

- ١- ما هو المحكم؟
- ٢- ما هو المتشابه؟
- ٣- ما هي الحكمة من وجود المتشابه في القرآن الكريم؟
- ٤- ما هي الطرق التي نستخدمها إذا واجهنا آيات متشابهات في القرآن الكريم؟
- ٥- من هم الراسخون في العلم؟ وما هو دورهم في التأويل وردّ المتشابه إلى المحكم؟

أجب بـ ✓ أو ✗:

المتشابه هو ما يمتثل وجوهاً متعدّدة من المعاني.
عند وجود الآيات المتشابهة والمحكمة فإنه لا بد من ردّ المحكم إلى المتشابه.
أهل الزيغ هم مرضى القلوب الذين يحتاجون إلى علاج بالحجّة والبرهان.
مشكلة أهل الجدل والمذاهب الكلامية أنهم يتجاوزون ظاهر الألفاظ القرآنية إلى المعاني الباطنية التي لا توافق العقل والسنة.
إن الرجوع إلى الراسخين في العلم يعني الرجوع إلى كل من له علم ودراية بعلوم القرآن ومعاني آياته الكريمة.

حدّد موضع التشابه في الآيات التالية وكيف تجيب عنها:

١ - ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾^١.

٢ - ﴿يُدُّ اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^٢.

^١ سورة الأعراف الآية: ٥٤، سورة يونس، الآية: ٣، سورة الرعد، الآية: ٢، سورة الفرقان، الآية: ٥٩.

^٢ سورة الفتح، الآية: ١٠.

الدّرس الثّاني عشر: الإعجاز القرآني

أهداف الدرس:

- ١- أن يتعرّف الطالب إلى معنى الإعجاز العام والإعجاز القرآني.
- ٢- أن يدرك الهدف من الإعجاز.
- ٣- أن يتعرّف إلى مذهب الصّرفة في الإعجاز.

تمهيد

يعتبر بحث الإعجاز من أهمّ الأبحاث في علوم القرآن الكريم، وهو من الأبحاث التي تعرّض لها العلماء قديماً، ولا يستغني عنها أي طالب في علوم القرآن، وقد ذكر هذا البحث أيضاً في علم الكلام عند التعرّض للأنبياء عليهم السلام، وأن بعض الأنبياء كان لديهم بعض المعجزات بما تتناسب مع عصرهم، فاضطر علماء الكلام للدخول في بحث المعجزة من جهة اقتزان هذا البحث بالنبوة وضرورتها وعلامتها، وأما في علوم القرآن فالتعرّض للإعجاز كان بما يتناسب مع القرآن الكريم وأنه معجزة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه النبيّ الخاتم، ورسالته خاتمة الرسالات، فمن الطبيعي جداً أن يأخذ بحث الإعجاز القرآني مكانة خاصة في هذا العلم.

معنى الإعجاز

الإعجاز في مصطلح علوم القرآن الكريم هو:

أن يأتي المدّعي لمنصب من المناصب الإلهية (كالنبوة) بما يخرق العادة، ويعجز عنه غيره من البشر كشاهد ودليل على صدق دعواه.

فعلى النبيّ الذي يدّعي النبوة أن يأتي بأمر يعجز الناس عن الإتيان بمثله، ويكون هذا الأمر على خلاف قوانين الطبيعة، ويوافق دعواه ويكون بهدف إقناع الناس به هدايتهم إلى الطريق الحق.

وعليه ف عناصر المعجزة هي :

- ١- عجز البشر عن الإتيان بمثل المعجزة.
- ٢- تكون خارقة لقوانين الطبيعة المعروفة.
- ٣- عدم استحالتها عقلاً.
- ٤- أن تكون في سياق إثبات صدق مدعي النبوة أو غيرها من المناصب الإلهية.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أنّ المعجزة لا تلغي قانون العلية ولا تخرج عنه، وإنما هي تستند إلى علة غير العلة المعروفة والطبيعية عند البشر. ولو كانت إلغاءً لقانون العلية لاستحالت عقلاً، وعندئذ يسقط عنصر مهم من عناصر المعجزة.

فولادة إنسان من غير أب لا يستحيل عقلاً، لأن خالق الإنسان الذي أوجده وخلق من طين ابتداءً بإمكانه خلقه من غير أب بالأولية، لكن المعتاد في الأسباب والقوانين الطبيعية أن يولد الإنسان من أبوين، فإذا ولد النبي عيسى عليه السلام من غير أب كان خرقاً لنواميس الطبيعة المتعارفة والمعتادة، لكن علة الخلق وأسبابه محفوظة بتمامها.

وهكذا بالنسبة لكلامه عليه السلام في المهد وإحيائه الموتى وأمثال ذلك.

الهدف من المعاجز

ليس من الضروري أن لا يؤمن الناس بالنبيّ إلا من خلال المعجزة وبعد مشاهدتها، نعم قد ينحصر الطرق أمام بعض الناس في إثبات صدق مدعي النبوة بالإتيان بالمعجز، لكن البعض الآخر من الناس قد يتمكن من معرفة صدق النبيّ والركون إليه والاطمئنان إلى صحة دعواه دون حاجة إلى معجزة أبدأً.

فلم يكن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بحاجة إلى معجزة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من أجل

الإيمان به وتصديقه، بل الثابت أنه آمن وصدّق وتيقّن دون انتظار، وكذلك كان إيمان وتصديق خديجة رضوان الله عليها.

بل الكثير من النصوص والروايات تحكي لنا إيمان العديد من أهل الكتاب بمجرد عرض الإسلام ومعارفه السامية عليهم، أو من خلال اطلاعهم على مبلغ علم النبيّ دون انتظار المعجزة، وأحياناً كانت سجايا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأخلاقه الرفيعة تشكل باباً لاختبار صدقه، لأن كل هذه الأمور من شأنها أن تقود إلى نوع من الاطمئنان والإيمان الواعي.

وأحياناً أخرى كانت صفات النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم المذكورة في الكتب السابقة باعث إيمان عند من اطّلع عليها ولم يتلى بالعصبية والعناد.

ومع ذلك فإن المعجزة هي دليل قاطع على صدق النبيّ، والحجة الدامغة على من ينكر ويحسد.

كيف تكون المعجزة دالة على صدق النبيّ؟

المفروض أن ما يأتي به النبيّ لإثبات صدقه يعجز عنه البشر (وهذه مقدمة وجدانية).

ولو كان ما جاء به بقدرة بشرية لما عجز غيره عن الإتيان بمثله (لأن حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد).

النتيجة إن ما جاء به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ليس بقدرة بشرية.
هذا الدليل استثنائي يمكن صياغته بعبارة أدقّ:

لو كان ما جاء به النبيّ بقدرة بشرية لما عجز عنه غيره، لكنهم عجزوا عنه.

النتيجة: فهو ليس بقدرة بشرية.

لكن من أين حصل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه القدرة الخارقة؟

النبي صلى الله عليه وآله وسلم حسب الفرض يدعي اتصالاً بما وراء الطبيعة، بل بخالق الطبيعة ومدبرها، وأنه نبي مرسل من قبله برسالة ليبلغها إلى الناس، فإذا كان صادقاً فاللازم أن يخصه المرسل بقدرة خاصة تثبت صدقه واتصاله الخاص به، وهي القدرة على الإتيان بالمعجز أو إجراء المعجز على يديه بعبارة أدق.

هذا النحو من الاستدلال تشير إليه الآية الكريمة التالية:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمَ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^١.

تنوع معجز الأنبياء عليهم السلام

روي أنّ ابن السكيت قال للإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام: لماذا بعث الله موسى بن عمران بيده البيضاء والعصا وآلة السحر، وبعث عيسى بآلة الطب وبعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالكلام والخطب؟!

فقال أبو الحسن عليه السلام: "إن الله تعالى لما بعث موسى عليه السلام كان الأغلب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله تعالى بما لم يكن عند القوم وفي وسعهم مثله، وبما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجّة عليهم، وإن الله بعث عيسى في وقت ظهرت فيه الزمانات واحتاج الناس إلى الطب، فأتاهم من عند الله تعالى بما لم يكن عندهم مثله وبما أحيا لهم الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجّة عليهم. وإن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في وقت كان الأغلب على أهل عصره الخطب والكلام والشعر فأتاهم من كتاب الله والموعظة والحكمة ما

^١ سورة هود، الآيتان: ١٣ و١٤.

أبطل به قولهم وأثبت به الحجة عليهم^١.

أوضح هذا النص الحكمة من تنوع المعاجز من نبيٍّ لآخر ومن زمنٍ لآخر، حيث إنه ينبغي أن تتوفّر السنخية بين المعجزة والفن الذي يبرع به أهل الزمان، لأن أهل الفن هم الأقدر على تمييز المعجز من غيره والصحيح من الزيف، ويرجع إلى أهل الخبرة عادة في تشخيص الحالات المشكّلة والصعبة، فالطبيب هو الأقدر على إدراك حالات الشفاء الخارقة للعادة والتي لم تتم بالأصول والأسباب المعروفة عند علماء الطب، والساحر أقدر على كشف السحر وفضح أسرارهِ وتمييزهِ عن المعجزة، ومن هنا كان أول من آمن بالنبّي موسى عليه السلام بعد المواجهة المعروفة هم السحرة أنفسهم الذين دخلوا في لعبة التحدي، وليس ذلك إلا لاطّلاعهم على فنون السحر، فأدركوا أنّ ما جاء به النبيّ موسى لم يكن سحراً فأمنوا.

وهذا هو السر في جعل القرآن الكريم معجزة رسولنا صلى الله عليه وآله وسلم، فقد كان عصر نزول القرآن من أزهى العصور في صنعة الكلام، بل لم يكن لهم من الفنون ما برعوا به سواها، حتى صاروا يعرضونها في أنديةهم وأسواقهم إلى جانب بضائعهم بل بدلاً عنها. ويفتخرون بها ويتبارون فيها.

مذهب الصرفة

حقيقة الإعجاز قائمة في كون المعجزة فوق قدرة البشر، وإعجاز القرآن الكريم من هذا القبيل، حيث إنه على مستوى البلاغة وغرابة النظم والأسلوب العجيب وما تضمّنه من معارف عالية وإخبارات غيبية تشكّل في مجموعها معجزة، بل يمكن القول بأن القرآن الكريم في كل واحد من هذه الجوانب بلغ حدّ الإعجاز.

^١ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ١١، ص ٧٠.

ومع ذلك فقد ذهب جماعة من العامة منهم النظام ومن الخاصة السيد المرتضى رحمه الله إلى ما يسمى بمذهب الصرفة، فزعموا أن الإعجاز: قائم في صرف الناس عن معارضة القرآن الكريم مع عدم استحالة الإتيان بمثله من قبلهم بحسب قدراتهم وإمكانياتهم الذاتية لولا الصرفة.

والذي دعاهم إلى هذا القول أنهم توهموا أن العرب آنذاك كان عندهم العلم بنظم القرآن والعلم بكيفية تأليف كلام يساويه أو يدانيه، والمعتاد أن من كان عنده هذان العلمان يتمكّن من الإتيان بالمثل، ومع ذلك لم يقدرُوا على المعارضة والإتيان بالمثل رغم محاولتهم واحتياجهم إلى ذلك في مقارعتهم له، فلا بد أنه تعالى أزال عن قلوبهم تلك العلوم وأعجزهم عن المعارضة وصرفهم عن ذلك.

الردّ على القول بالصرفة:

١- لا نُسَلّم أن العارف بوجوه البلاغة ونظم الكلام من العرب يمكنه الإتيان بمثله، والبلاغة هي صياغة كلام مطابق لمقتضى الحال، وهو أمر يختلف باختلاف مقتضيات الأحوال. ومهما بلغت قدرات البشر فإنهم يتمكّنون من تأليف كلام على نظم يتوافق مع ما يدركونه ويلاحظونه أو يهتمّون به من مقتضيات الأحوال.

أما القرآن الكريم الذي حوى من المعارف ما لا يمكن أن يحويه كلام أحد، وخاطب البشر كل البشر بلسان واحد، فهو في آن واحد يراعي مقتضى حال العوام والخواص، البسطاء والبلغاء، الراسخين في العلم ومن لم يؤتوا إلا الحظ القليل، وضمن الكلام الواحد من المعارف والمعاني ما لا ينقضي ولا يحدّ. وهذا هو الإعجاز البلاغي الخاص بالقرآن.

٢- إن الصرفة لو تحققت بعد البعثة لكان بالإمكان أن نجد بين القرآن وبين ما تقدّم على البعثة من كلام البلغاء نوع تشابه وتقارب أو تماثل، فتبطل به المعجزة، لإمكان

أن يجاب عن تحدّيه بأنّ العرب جاءت بمثله، وبه يسقط إعجازه، وهذا لم يحصل في زمن التحدّي لكل العرب.

٣- لو كان إعجاز القرآن بالصرفه لكان الأولى في الإعجاز أن يكون عن الإتيان بالركيب من الكلام لا البليغ ولا ذي النظم العجيب. فإن إعجاز الناس عن الإتيان بما هو سهل يسير في العادة أبلغ في الحجّة من إعجازهم عن العالي العزيز.

الشواهد على بطلان مذهب الصرفه:

من الشواهد على بطلان مذهب الصرفه وكون الإعجاز في النظم القرآني الخاص:

ما نقل من قصة الوليد بن المغيرة عندما قرأ عليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً من القرآن، قال لقومه: فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منّي ولا أعلم برجز ولا بقصيدة منّي ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وأنه ليعلو وما يعلى، وأنه ليحطم ما تحته.

فقال له أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكّر قال: هذا سحر يؤثر، يأتريه عن غيره. فنزلت: ﴿ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا...﴾^١.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري^٢.

وهناك الكثير الكثير من الحالات التي أسلم فيها أناس أو أقروا بأنه ليس من كلام البشر بمجرد سماعه وهو ينافي مذهب الصرفه.

^١ سورة المدثر، الآية: ١١.

^٢ الحاكم، المستدرک على الصحيحین ج ٢، ص ٥٠٧، السيوطي، الدر المنثور، ج ٦، ص ٢٨٣.

ب- يروى أن المشركين كانوا يطردون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا رفع صوته بالقرآن، وكانوا يشوشون عليه بالصفير والصفيق لئلا تسمع قراءته، لأن القرآن كان بنفسه ينادي بأنه كلام رب العالمين، وبلاغته وبيانه ونظمه ليست من النوع المألوف وما اعتادته أسماعهم وكل هذا يكشف عن كون الإعجاز في نفس القرآن الكريم لا في صرف الهمم عن معارضته.

آيات التحدي

١- الآية المتقدمة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^١.

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^٢.

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ وَاذْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^٣.

٤- قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^٤.

٥- قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾^٥.

^١ سورة هود، الآية: ١٣.

^٢ سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

^٣ سورة البقرة، الآيتان: ٢٣ و ٢٤.

^٤ سورة يونس، الآية: ٣٨.

^٥ سورة الطور، الآيتان: ٣٣ و ٣٤.

هذه الآيات الخمس ترتيبها بحسب تسلسل النزول (طبقاً لمرويات السنّة في هذا المجال فليس عندنا فيه شيء يذكر) الثانية ثم الرابعة ثم الأولى ثم الخامسة ثم الثالثة.

وهذا يعني أن التحدّي يبدأ بتمام القرآن (النازل منه طبعاً)، ثم بسورة واحدة، ثم بعشر سور، ثم بجميعه ثم بسورة واحدة. (الإسراء، يونس، هود، الطور، البقرة).

لكن القرآن لما كان اسم جنس ينطبق على بعضه حقيقة فالتحدّي إذن تارة بمطلق القرآن الذي يقبل الانطباق على أي سورة أو أي جزء منه، وأخرى بعشر سور وثالثة بسورة واحدة. وليس هنا من تدرّج في التحدّي بناءً على تسلسل النزول المتقدّم، وإن تحدّث عنه الكثيرون. نعم إذا أسقطنا اعتبار ترتيب النزول وأخذنا الآيات مجرّدة عن زمان نزولها فهناك مراتب للتحدّي يمكن أن توصف بأنها نحو من أنحاء التدرّج.

ومهما يكن فإن التاريخ لم يحدّثنا عن أية معارضة للقرآن أدت إلى التشويش على عظمة القرآن وإلى إيجاد شبهة أمام إعجازه وتحديّه.

نعم هناك ما يُسمّى تسامحاً معارضات، لكنها مثار السخرية وتدلّ على سذاجة أصحابها نقل منها شيء عن مسيلمة الكذاب وأبي الطيب المتنبي وأحد المسيحيين في رسالة حسن الإيجاز وهي لا تستحقّ الوقوف عندها وإطالة الكلام بذكرها وتضييع الوقت بنقلها¹.

أبعاد الإعجاز القرآني

دراسة أبعاد الإعجاز القرآني تحتاج إلى ملاحظة أمور:

١- إن القرآن جاء ليخاطب البشر جميعاً بل الجن أيضاً، فلا يختصّ بأمة دون أمة ولا جماعة دون جماعة.

¹ راجع، البيان للسيد أبي القاسم الخوني، ص ٩٤-٩٣، التمهيد للشيخ محمد هادي معرفة، ج ٤، ص ٢٢٧.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾^١.

٢- من حيث البعد الزمني يخاطب كل الأزمان منذ البعثة وحتى قيام الساعة.

﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾^٢.

٣- ومن حيث البعد الموضوعي هو شامل لكل شيء.

﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^٣. ﴿تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^٤.

٤- النبي المرسل الذي جاء به لم يتعلم عند أحد ولم يتلق معرفة من أحد من البشر بل كان أمياً لا يقرأ.

﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾^٥.

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَنَّكَ الْمُتَطَلُّونَ﴾^٦.

فبعد ملاحظة الأمور الأربعة نجد أن القرآن الكريم جاء به من لم يتلق العلم من أحدٍ من البشر، وعلى هذا المستوى الذي أعجز أهل البيان والبلاغة، وبلاغته بلحاظ الأمور الثلاثة الأولى أكبر من أن توصف أو أن تقارن ببلاغة البشر. والإعجاز البلاغي لا يقاس بالنظم والفصاحة والمحسنات البديعية فقط دون ملاحظة المعاني التي يراد صياغة الكلام لبيانها وإيصالها إلى المخاطب، فإن جمال السبك وحسن النظم ينبغي أن يضاف إليه الانسجام التام مع المؤدى وكونه قادراً على إبلاغ المعنى وإيصاله.

^١ سورة الطور، الآية: ٣٤.

^٢ سورة الأنعام، الآية: ١٩.

^٣ سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

^٤ سورة النحل، الآية: ٨٩.

^٥ سورة النحل، الآية: ١٠٣.

^٦ سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

شروط دلالة الكلام:

كما أن لدلالة الكلام على المعنى في مقام التفهّم والتفهيم شروطاً:

١- أن يكون اللفظ قادراً على تحمّل المعنى المطلوب: فقد اعتمد القرآن اللغة العربية بما لها من خصائص ومميّزات, فهي أقدر اللغات على تحمّل المعاني.

٢- أن يكون الكلام موافقاً لشخصيّة المتكلّم، مقدّراً بقدره، وموزوناً بما تكتنّفه هذه الشخصيّة من علم وقدرة وسعة وإحاطة وغير ذلك من الصفات.

٣- أن يكون ذلك المعنى منسجماً أيضاً مع نوعية اختصاص المتكلّم ومع مراميّه وأهدافه: فهناك انسجام تام بين القرآن والهدف الذي أنزل من أجله.

٤- قدرة المخاطبين على استيعاب المقصود ولو على امتداد الزمن: فيلاحظ فيه أنه يناسب جميع المخاطبين، ويعطي كل مخاطب ما يناسبه.

وبهذا يتجلّى الإعجاز البياني فيه، الذي تمكّن أن يؤدّي المعارف المتنوّعة والسّامية التي تناسب كل مستويات البشرية، والإشارات العلمية وأسرار الخليقة وأصول النظام الكوني، وفي الوقت نفسه يخاطب الجميع دون أن يكون ذلك محلاًّ بإمكانية إيصال المطلوب إلى أهله، فهو يوصل لعوام الناس سهمهم من المعارف، ويوصل إلى ذوي البصائر والعقول العلمية حصّتهم.

وهناك جوانب إعجازية أخرى تتمثّل في الاختبارات الغيبية والكشف عن الجوانب الخفية من قصص الأنبياء والأمم السالفة، والإشارات العلمية، والحديث عن أسرار الكون بما لم يكن معروفاً عند علماء الطبيعة والفلك آنذاك وغيرها من الوجوه، وأهمّها هو الإعجاز البياني الذي قدمنا الحديث عنه وهو لعلّه يشمل كلّ هذه الجوانب لأنّها داخلة في مفهوم البلاغة والأهداف القرآنية.

في ختام بحث الإعجاز نقل عبارة الإمام الخميني قدس سره التي تتحدّث عن وجه من وجوه الإعجاز في القرآن:

"إن القرآن الشريف قد جمع من لطائف التوحيد وحقائقه وسرائره ودقائقه ما تتحرّر فيه عقول أهل المعرفة، وهذا هو الإعجاز العظيم لهذه الصحيفة النورانية السماوية، لا أنّ حسن التركيب ولطف البيان وغاية الفصاحة ونهاية البلاغة وكيفية الدعوة والإخبار عن المعيّبات وإحكام الأحكام وإتقان التنظيم للعائلة وأمثالها فحسب، التي يكون كلّ واحد منها باستقلاله إعجازاً فوق الطاقة وخارقاً للعادة، بل يمكن أن يقال إن معرفة القرآن بالفصاحة واشتهار هذا الإعجاز من بين سائر المعجزات في الآفاق لأنّه كان للأعراب في الصدر الأول هذا التخصّص، وأدركوا هذه الجهة من الإعجاز فحسب، وأما الجهات الأخرى المهمة التي كانت فيه وكانت جهة إعجازها أرفع، وأساس إدراكها أعلى فلم يدركها أعراب ذلك الزمان، والحال أن المتحدّين منهم في أفق الفهم لا يدركون من هذه اللطيفة الإلهية سوى التركيبات اللفظية والمحسّنات البديعية والبيانية، وأما المعترفون (ولعلّ الصحيح المتعرفون) لأسرار المعارف ودقائقها والخبراء بلطائف التوحيد والتجريد، فوجهة نظرهم في هذا الكتاب الإلهي وقبلة آمالهم في هذا الوحي السماوي إنّما هي معارفه، وليس لهم توجه كثير إلى الجهات الأخرى.."^١

^١ الإمام الخميني قدس سره، الآداب المعنوية للصلاة، ص ٤١٨.

أسئلة حول الدرس

أجب عن الأسئلة التالية:

- ١- عدّد عناصر الإعجاز وبيّن علاقة المعجزة بقانون العلية؟
- ٢- كيف تدل المعجزة على صدق دعوى النبوة، ومن أين يحصل للنبي هذه القدرة الخارقة؟
- ٣- ما هي الحكمة من تنوّع المعاجز من نبيّ لآخر ومن زمن لآخر؟
- ٤- هل الإعجاز حقيقي؟ أثبت ذلك بالدليل؟
- ٥- ما هو المقصود بالإعجاز البياني في القرآن الكريم؟

أجب بـ ✓ أو ✗:

الإعجاز هو أن يأتي المدعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق نواميس الطبيعة، ويعجز عنه غيره كدليل على صدق دعواه.

من القواعد الأساس في حقيقة المعجزة أنها تلغي قانون العلية.
لا يؤمن الناس بالنبي إلا من خلال المعجزة وبعد مشاهدتها.
ينبغي أن تتوفّر السنخية بين المعجزة والفن الذي يبرع به أهل الزمان.
مذهب الصرفة يعني أن الإعجاز هو استحالة الإتيان بمثله من قبلهم بحسب قدراتهم وإمكانياتهم الذاتية.

املاً الفراغ بالإجابة المناسبة:

البعد الزماني - مخاطبة كل الأمم - أمية الرسول - البعد الموضوعي

﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾^١

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾^٢

﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^٣

﴿وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾^٤

^١ سورة الأنعام، الآية: ١٩.

^٢ سورة الطور، الآية: ٣٤.

^٣ سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

^٤ سورة النحل، الآية: ١٠٣.